اللغة العربية بأسيوط
المجـــلة العلميـــة

من ملامح الصدق الفنـي
فى شعر المعتمد بن عباد "بعد النكبة"

إعداد
أ. د/ عبدالعاطى سيد حرب سالمان
أستاذ الأدب والنقد المساعد

(العدد التاسع والعشرون – الجزء الأول يوليو ٢٠١٠)

"مقدمـــة"

الحمد لله رب العالمين، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، أحمده سبحانه لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء والله على كل شيء قدير ، سلطانه دائم وملكه قائم ٠٠ والصلاة والسلام على الصادق الأمين والرسول العربي الأمي الكريم ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، يوم لا ينف ع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ،

وبعد ٠٠

فإذا نظرنا إلى التراث الأندلسي الذي وصلَ إلينا " شعره ونثره " رأيناه قد ولد بين الأحداث المتلاحقة ، وذلك الصراع المستمر بين الأحزاب والطوائف المختلفة التي قامت على أنقاض الحكومات أو الخلافة المنهارة ما بين الأندلسيين وغزاهم من أفريقية ، وبينهم وبين النصارى في شمال وطنهم ٠٠ وقد تمد كل هذا للشاعر والأديب الأندلسي حب التغني بتلك البقعة التي ينتمي إليها ، بل كل الأرض التي قطعها الشاعر حباً في الرحلة، أو طلباً للمتعة ، وهو في شعره هذا كان يتذكر ما رآه على وديانها من زهر وثمر ، وما في سمائها من برق وسحب وما يخترقها من بحيرات وأنهار ، وما يتحرك عليها من طير وحيوان ، وما له فيها من صداقات وذكريات ، فإذا افتقد ذلك ، وأصبح غريباً ، حنَّ إليه ، وإذا ذهبت به الحرب بكاه بصدق، فما بالك إذا كان الشاعر " المعتمد بن عباد " ؟ وكان أحد ملوك الأندلس ثم أصبح سجيناً ؟ فلابد أن يكون لنا مع مشاعره الجياشة شعر يعبر فيه عن هذه المحنة وتلك النكبة التي ليس لها من دون الله كاشفة " مملكته تسقط في أيدي المتربصين به ، ويصبح العزيز ذليلاً فيصور ذلك في جو صادق، مثل هذه الفواجع التي حلت به وبمن معه ــ كما سوف نرى ــ، إن هذا الشعر نبع من وجدان المعتمد بن عباد الذي غلبته الأقدار وحاربه الدهر ، وتنكرت له الدنيا ٠٠ وحتى لا يطول بنا الحديث ، لا نستطيع أن نستقصي كل ما ورد في هذا الصدد من شعر للمعتمد بن عباد ، ولكن سنختار بعض النماذج ــ لعلها تفي إن شاء الله تعالى ــ بالغرض ، ولذلك سوف تكون خطة هذا البحث على النحو التالي :

١ ــ هذه المقدمة التي بينت فيها أهمية البحث ، ثم التمهيد الذي أتناول فيه معنى الصدق الفني عند النقاد وأهميته في دراسة النص الشعري وفي بنائه الفني وأثره على المتلقي ٠

٢ ــ موضوع البحث وسيكون عبارة عن نماذج للصدق الفني في شعر المعتمد بن عباد ، وسيدور الحديث فيها حول أربعة اتجاهات : الأول مع النفس ، وفيه يتحدث الشاعر إلى نفسه وذاته ، الثاني مع الأسرة ، ونعني بها : الزوجة ــ البنات ــ الأولاد ، وسنأتي بنماذج مما قاله في هذا الصدد ، الثالث : مع الشعراء الذين عاصرهم ورافقهم ، وكانت لهم معه صحبة ووصلهم حتى وهو في السجن ، وأخيراً الرابع : مع بعض الناس الذين تعامل معهم أو كانوا من خاصته ثم أطلق سراحهم ، وبقى هو في سجنه .

ثم نأتي إلى نهاية هذا البحث في نحات عن الرؤية الفنية في هذه النماذج التي مرت .. ثم الكلمة الأخيرة .

ونختم هذه السطور بقائمة للمراجع التي استقينا منها هذه المعلومات.

ولا أدعي الكمال ، فهذا لله وحده ، فإن أكن وفقت فلله وحده الحمد والمنة وإن تكن الثانية فحسبي أنني اجتهدت وبذلت ما أستطيع ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد : المقصود بالصدق الفني :

جاء في كتاب أصول النقد الأدبي تحت عنوان " الحقيقة " في الفصل الثالث من الباب الثالث وهو " في بعض مقاييس النقد الأدبي هذه العناصر ".منزلة الحقيقة في الأدب الخاص والعام ، مقاييسها النقدية ، كمية الأفكار ، جدتها ، صحتها ـــ الأدب والحياة ، الفن والحقيقة ، الواقعية والمثالية ، الواقعية والخيالية ... ، وينهي الناقد حديثه عن هذا الفصل بقوله : " .. وخلاصة هذا الفصل أن الأديب يجب أن يعني بتصوير الحقائق في صدق وإخلاص ، وأن قيمته الفنية تقاس بقدر ما احتوى من هذه الحقائق ، ولكن تصويره لها يجب ألا يكون دقيقاً ، بل تمثيلاً وتفسيراً لها ، ومهما يكن المراد بالمذهب الواقعي في الأدب فخير لرجاله أن يعرفوا أن قيمة الأدب تتركز في اتخاذ الحوادث والتجارب ، وسائل لتفسير قوانين الحياة ، وطبائع الجنس البشري [1] .

وهذا ما سوف نراه فيما نعرضه في هذا البحث من نماذج لشعر المعتمد بن عباد في تلك المحنة التي ألمت به ، وهذه المعاناة المريرة والقاسية التي عاشها ، فبعد أن كان ملكاً له سلطانه وهيبته وقوته ومكانته في المجتمع الأندلسي ، صار في القيود والأغلال أسيراً ذليلاً ... ! .

" وإذا كان الشعر ـــ كما جاء عند الأستاذ سيد قطب ـــ ليس تعبيراً عن الحياة ـــ كما غالى بعض الكتاب إنما هو تعبير عن اللحظات الأقوى والأملأ بالطاقة الشعورية في الحياة ، وليس لموضوع التعبير في ذاته دخل في هذا ، فالمهم هو درجة الانفعال الشعوري بهذا الموضوع .. " [2] ، فلا يمكن أن يقوم فن على زيف ، ولا يمكن أن تبلغ كلمة إلى مداها في نفوس السامعين أو القارئين، ما لم تكن نابضة بكل معاني الصدق ، وما لم تحركها عاطفة فياضة تستثيرها تجربة من تجارب الحياة التي تهتز لها نفس الشاعر وتثير فيها أعمق الانفعالات وأصدقها ، كما حدث لشاعرنا هذا .

وإذا كان الشعر في بعض مدلولاته هو التعبير الجميل بالكلمة عن تجربة إنسانية صادقة يعيشها الشاعر وينفعل بها ، فمن خلال هذا المفهوم البسيط ندرك أن الصدق هو حجر الزاوية في

---

(1) راجع هذا الفصل كاملاً من ص ٢٢٤ إلى ص ٢٤١ في كتاب " أصول النقد الأدبي د. أحمد الشايب ، مصر سنة ١٩٧٣ م .

(2) النقد الأدبي ، الأستاذ سيد قطب ، ص ٦٤ ، بيروت .

كل إبداع فني جديد ، إنه نقطة البداية التي يبدأ منها عمل الشاعر حينما يرقى إلى مسئولية فنه ، ويتجاوز مرحلة المحاكاة إلى مرحلة المعاناة الصادقة والإبداع الحي الذي يبلغ إلى غايته من الإصابة النفسية والاجتماعية .

فالشاعر بحسه المرهف وبصدقه الفني وبصيرته النافذة يحسن الاستماع إلى نبض الحياة ، وتعانق روحه صورة الواقع الذي يحيط به ، وهنا قد تثيره تجربة من تجارب الواقع فتهتز لها نفسه ، وينفعل بها ذلك الانفعال الصادق الذي يملأ آفاق روحه ، وهنا تتحقق معايشته للتجربة عن طريق هذا التلاقي بين الصدق الواقعي والصدق الفني ، ويظل هذا الانفعال يحتدم في نفس الشاعر ، ويحرك كل ما بداخله من طاقات حتى تتكون الرؤية الشعرية كنتيجة لهذا الانفعال الخارجي الذي يمثل حلقة الاتصال بين عالم الشاعر الداخلي والخارجي السابق .

إن الصدق الفني هو رد فعل للصدق الواقعي ، بمعنى أن الشاعر لا يستطيع أن يعاني إحساساً عميقاً بموقف من المواقف ، إلا إذا كانت لهذا الموقف صورة خارجية يرتبط بها إما عن طريق المعايشة المباشرة ـــ وهذا بها أقوى ـــ أو عن طريق التمثل الوجداني الذي يمكن أن يحقق طاقة الانفعال التي تحققها المعايشة المباشرة .

ومن ثم لابد من وجود الترابط بين الصدق الفني والصدق الواقعي حتى يصبح الشعر مصدراً من مصادر التاريخ والمعرفة ، وعن طريقه يمكننا أن نقف على تضاريس الحياة الإنسانية ، واختلاف الأحوال فيها عبر انتقالها من طور إلى طور، كما هو الحال عند شاعرنا المعتمد بن عباد ، فعن طريق ما نظمه والذي سنختار منه أمثلة ـــ هنا ـــ وسنعرضه ـــ هنا ـــ نستطيع أن نقف على ما آل إليه حاله الذي يدعونا جميعاً إلى الاعتبار والعظة ، ويقول لنا كلمة فيها تلخيص حياة البشر"وهذه الدار لا تبقى على أحد .. ولا يدوم على حال لها شان ".

ومن النقاد العرب القدامى من يجعل الصدق من أهم عناصر الشعر ومن أكبر مزاياه ، وهو " ابن طبا طبا العلوي في كتابه عيار الشعر ، لأن هذا الصدق صنو الاعتدال الجمالي في حرم الفهم وهو يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق ... ويستوحش من الكلام الجائر الخطأ الباطل " فالجمال والصدق مترادفان هنا في الدلالة .... "[٣] .

ويعلق الدكتور إحسان عباس على هذا قائلاً : [فهذا الصدق يعني السلامة التامة من

(٣) عيار الشعر ـــ ابن طبا طبا العلوي ، ص ١٤ ، وما بعدها .

الخطأ في اللفظ والجور في التركيب والبطلان في المعنى، أي هو أن يتمتع الشعر بالاعتدال بين هذه العناصر جميعاً ، فإذا هو بسبب الصدق شيء جميل لأن " ميزان الصواب " قبل ما فيه من لفظ ومعنى وتركيب ، ذلك هو الصدق في محمله العام ، ولكنه لابد من أن يتحقق أيضاً في الفنان ــ الشاعر ــ نفسه وفي بعض عناصر العمل الفني ، ولهذا كانت لفظة الصدق متفاوتة الدلالة عند ابن طبا طبا ، فمنها : ١ــ الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها والتصريح بما يكتم منها والاعتراف بالحق في جميعها ، وهذا يشبه ما نسميه بالصدق الفني ، أو إخلاص الفنان في التعبير عن تجربته الذاتية ... " (٤) .

ومنها أيضاً : ٢ــ صدق التجربة الإنسانية عامة ، وهذا يتمثل في قبول الفهم للحكمة " لصدق القول فيها وما أتت به التجارب منها ... وكذلك: ٣ــ الصدق التاريخي وذلك يتمثل عند اقتصاص خبر أو حكاية كلام ، وهنا يجوز للشاعر أن يزيد أو ينقص على شرط أن تكون الزيادة والنقصان يسيرين غير مخرجين لما يستعان بهما ، وتكون الألفاظ المزيدة غير خارجة عن جنس ما يقتضيه ، بل تكون مؤيدة له وزائدة في رونقه وحسنه .. وهنا الصدق الأخلاقي وهو ما لا مدخل فيه للكذب بنسبة الكرم إلى البخيل ، وكذلك الصدق التصويري أو صدق التشبيه ... الخ (٥) .

فإذا ما توفرت للشعر أنواع الصدق ــ السابقة ــ وتوفر للشاعر صدق التجربة جاء شعره جميلاً معتدلاً ، مؤثراً ، هكذا يجب أن " ينسق الكلام صدقاً لا كذب فيه ، وحقيقة لا مجاز معها فلسفياً " (٦) .

وخروجاً من هذه القضية الشائكة ، والرأي الذي أميل إليه هو ما ذكره د. إحسان عباس عندما جمع بين رأي ابن طبا طبا السابق وبين رأي الآمدي قائلاً [.. اتفق الناقدان على رفض من قال أعذب الشعر أكذبه ، فقال الآمدي معلقاً على أبيات للبحتري : " وقد كان قوم من الرواة يقولون أجود الشعر أكذبه . ولا والله ما أجوده إلا أصدقه ، إذا كان له من يخلصه هذا التخليص ويورده هذا الإيراد على حقيقة الباب ... " (٧) ، وأيضاً ما ذكره الدكتور إحسان عباس تحت

---

(٤) السابق ص ١٥ وما بعدها ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب د . إحسان عباس ص ١٤٢ وما بعدها .

(٥) السابق " عيار الشعر ، وتاريخ النقد الأدبي " د . إحسان عباس ص ١٤٤ وما بعدها .

(٦) عيار الشعر ، ص ١٢٨ .

(٧) الموازنة ــ الآمدي ج ٢ ص ٥٨ ، نقلاً عن تاريخ النقد ص ١٧٠ .

عنوان قضية الصدق والكذب في الشعر ــ بعدما ذكر آراء بعض النقاد في هذه القضية من أمثال : ابن طبا طبا العلوي الذي ربط الشعر بالصدق من النواحي المختلفة ، وكذلك قدامة بن جعفر ، الذي جعل الكذب مرادفاً للغلو ، ومن هنا ظهرت مقولة : " أعذب الشعر أكذبه وكذلك الفارابي وابن سينا ، وحازم القرطاجني ، وغيرهم من هؤلاء النقاد الذين تناولهم فمنهم من قال " خير الشعر أصدقه ، ومنهم من قال : " أعذب الشعر أكذبه ، ومنهم من قال " أحسن الشعر أقصده " وهكذا نرى كيف تعددت زوايا النظر إلى هذه القضية ، وكان حازم ــ رغم تردده ــ هو الذي حلها حين برهن على أنها قضية خارجة عن طبيعة الشعر ، من حيث هو شعر ... [٨] .

ومن هنا ، وكما يقول : د. غنيمي هلال : (.. أصبح مقياس البراعة في الشعر لدى هؤلاء النقاد هو جودة الكلام وحسن الصياغة ، وفي الفصل بين العمل الفني والصدق ــ صدق الواقع والصدق الفني ــ مساس خطير بأسس الفن الجوهرية ، إذ لا يستطيع فنان أداء رسالته إلا بالتزام الصدق الواقعي على حسب ما يراه هو أو يفكر فيه كما يعتقده ، أو ما يشعر به ، ثم بالتزام الصدق الفني بالتعبير عن حقيقة أصيلة يرجع في تصويرها إلى ذات نفسه ، لا إلى ما حفظ من عبارات وسرق من جمل " [٩] .

" وعلى كل حال يجب أن نعير اهتماماً لما يسمونه مبدأ الصدق ، وقد كان أفلاطون أول من أعلنه وهو أن أساس كل عمل جيد وخالد في الأدب هو الإخلاص التام من الفرد لنفسه والإخلاص التام منه لتجربته الخاصة في الحياة .. " [١٠] ، التي عاشها وأراد أن يعبر عنها ، بكل ما فيها من إيجابيات أو سلبيات يجعل المتلقي يتعاطف معه ، ويثير حفيظته ، ويؤجج النار بين جوانحه لنصرته ــ خاصة إذا كان الشاعر مثل المعتمد بن عباد موضوع هذه السطور .

([٨]) راجع : تاريخ النقد الأدبي عند العرب د. إحسان عباس ص ٣ ــ ٣٦ ، بتصرف .

([٩]) راجع النقد الأدبي الحديث د. محمد غنيمي هلال ، ص ٢١٥ ، ط . نهضة مصر ــ القاهرة ١٩٧٧م.

([١٠]) راجع: النقد الأدبي د. أحمد أمين ص ١٨ وما بعدها ط. نهضة مصر ــ القاهرة سنة ١٩٨٣م.

المبحث الأول

من بواعث الصدق الفني في شعر المعتمد بن عباد

١ــ نشأة وحياة المعتمد بن عباد ، والتي كانت في الحلية والزينة والترف ، فهو ابن أمير إشبيلية ، ومن سلالة النعمان بن المنذر اللخمي ، وكان المعتضد والده أديباً مثقفاً ، فاعتنى به وأحضر له المعلمين من علماء وفقهاء وكانت فيه فطنة وذكاء وتفتحت ملكة الشعر لديه مبكرة ، وأراد المعتضد أن يدربه على نظام الحكم والرياسة ، فعهد إليه في بواكير الشباب بحكم " شلب " في الجنوب الغربي للأندلس ، فنزل في قصر الشراجيب ، وتعرف على ابن عمار وغيره وعاش حياته يتقلب في ظل حكم أبيه "المعتضد القوي والذي كان يجمع بين الدهاء واليقظة والقوة البالغة والإحساس الرقيق والعلم الواسع والذوق الرفيع ، إلى ذاكرة واعية وقريحة شاعرة ، وأحاط نفسه بهالة من الشعراء ... [١١] .

٢ ــ مدة حكمه : وخلفه ابنه المعتمد بن عباد (٤٣٢ ــ ٤٨٨ هـ / ١٠٤٠ ــ ١٠٩٥ م) على عرش إشبيلية واحتل في دنيا الأدب والتاريخ مكانة أعظم من مكانة أبيه ، فقد فاقه في الشعر ، وبرئ من أوزاره في السياسة ، وكان شاعراً ينظم الشعر على نحو يثير الإعجاب ، وظل حكمه في ازدهار زهاء عشر سنين ، لكن سقوط طليطلة ، وضغط النصارى على بقية الحواضر الإسلامية ــ جعل ملوك الطوائف يستنجدون بالمرابطين في أفريقيا ، وعبر هؤلاء إلى الأندلس ، وانتصروا على النصارى انتصاراً حاسماً في معركة الزلاقة [١٢] ، وهذا بداية ضعف المعتمد بن عباد .

٣ ــ بعد هذه المعركة سرعان ما انقلب المرابطون على ملوك الطوائف أنفسهم ، وأخذوا يستولون على معاقلهم واحداً إثر الآخر، وسقطت إشبيلية بعد كفاح مرير من المعتمد وأبنائه ، وقتل منهم المأمون والراضي، ومن قبلهم الظاهر، ومن بعدهم عبد الجبار، ولما صار هذا الفارس الشجاع في أيدي المرابطين " جمع هو وأهله وحملتهم الجواري المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العمر ، والناس قد حشروا بضفتي الوادي ، وبكوا بدموع

---

(١١) راجع : دراسات أندلسية د . الطاهر أحمد مكي ص ٢٣٦ ، ط / دار المعارف مصر سنة ١٩٨٣ م .

(١٢) راجع : دراسات أندلسية د . الطاهر أحمد مكي ص ٢٣٦ ، ط / دار المعارف مصر سنة ١٩٨٣ م .

كالغوادي ، فساروا والنوح يحدوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم ... " [١٣] .

٤ ــ وقد كان المعتمد في حياته شاعراً أكثر منه حاكماً إلا أن عراقة الأصل ونبل المحتد ، وحمية العربي ، تجلت واضحة في مواقفه من ضغط النصارى في الشمال ، فكان أول من اقترح دعوة المرابطين لمواجهة جيوش النصارى الزاحفة ، وحين خوفه المنتفعون بالفساد في وطنه بأنهم إذا جاءوا لن يرحلوا ، كانت قولته الشهيرة " رعي الجمال خير من رعي الخنازير " [١٤] ، وقاتل في معركة الزلاقة قتالاً محموداً شجاعاً ، وسار إليها على رأس جيشه واثقاً بالنصر ، ينشده :

لابد من فرج قريب ∴ يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك ∴ سيعود بالفتح القريب
لله سعدك إنه ∴ نكس على دين الصليب
لابد من يوم يكو ∴ ن له أخاً يوم القليب

وألقى ألفونسو السادس ملك قشتالة بنقل جيشه كله على المعتمد ، لأنه من وراء هذه الحرب ، ومال عليه بكل جموعه ، وأحاطوا به من كل جهة ، وحمي الوطيس ، واستحر القتل في أصحاب ابن عباد ، وصبر المعتمد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، وعضته الحرب واشتد عليه وعلى من معه البلاء ، وانكشف بعض أصحابه وفيهم ابنه عبد الله ــ قد ــ أثخن جراحاً ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته ، حتى وصلت إلى صدغه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، كلما هلك واحد قدم له آخر ، وهو يقاسي حياض الموت ، ويضرب يميناً وشمالاً ، ... وتنتهي المعركة بانتصار الإسلام انتصاراً حاسماً ، وغطت جثث جيوش ألفونسو ساحة المعركة فما يستطيع أحد أن يتحرك خلالها إلا على الجثث خوضاً في الدماء .. " [١٥] .

ويروى أن أمير المسلمين أمر بقطع رؤوس القتلى من النصارى ، فقطعت وجمعت ، فاجتمع منها تل عظيم ، أذن فوقه للصلاة ، واجتمع منها بين يدي المعتمد بن عباد أربعة وعشرين ألفاً ، وأن

---

(١٣) راجع : نفح الطيب المقري ــ تحقيق د. إحسان عباس ج ٤ ص ٣٥٩ ، ج ١ ، ٤٣٩ ، طبعة بيروت ١٩٦٨م .

(١٤) المرجع السابق .

(١٥) دراسات أندلسية د . الطاهر أحمد مكي ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

رؤوس القتلى التي وزعت على قواعد الأندلس بلغت أربعين ألفاً ، وأنه أرسل إلى المغرب أربعين ألفاً أخرى .. وعلى كل كانت الموقعة هائلة وأن خسائر النصارى فيها كانت فادحة ، وكانت خسائر المسلمين كبيرة كلها أقل بكثير من النصارى [١٦] .

والذي نلاحظه هنا " فيما يتعلق بأمراء الأندلس ما أبداه المعتمد بن عباد وجند إشبيلية في ذلك اليوم المشهود من فائق الشجاعة وحسن البلاء ، وقد أثخن المعتمد جراحاً ، ولكنه لم يغادر أرض المعركة حتى تداركته النجدات المرابطية وتخص الروايات الإسلامية المعتمد بتقديرها وثنائها ، وينوه أمير المسلمين بشجاعته وبطولته في خطابه بالفتح إلى المغرب .. [١٧] ، وهذا يرد على من قال ابن المعتمد كان خائناً ضعيفاً يدفع الجزية للنصارى ، " وكان يقول بعض الباحثين متهماً المعتمد بالخيانة والضعف " .. وحين جاءت لحظة الاختيار ، لم ينس أنه أسباني ، ولو أن المؤرخين العرب وضعوا على فمه الجملة الشهيرة ، قبل أن يحتضر الإسلام في أسبانيا " أفضل أن أرعى الجمال في أفريقيا ، على أن أرعى الخنازير في قشتالة .. " ومن المؤكد أنه حين رأى المرابطين يغزون الأندلس لجأ إلى صهره ألفونسو السادس ، وكانت لحظة توتر فاجعة في حياة أسبانيا .. " [١٨] .

ثم يواصل قائلاً : " وأمضى الملك الشاعر التعس ما تبقى له من العمر سجيناً في أغمات بائس العيش ، تهدهد خياله الآمال في أن يعود إلى ملكه يوماً وهو أمل لم يتحقق .. " وليت الباحث وقف عند هذا الحد ، ولكنه ذكر في الهامش شيئاً عجيباً وسأذكره بنصه : " حينما رفض المرابطون ترك الأندلس بعد انتصارهم الحاسم في معركة الزلاقة عام ١٠٨٦م ــ حاول المعتمد أن يحالف ملك قشتالة ضدهم ، ولكن المرابطين انتصروا عليهم ، وقتل بعض أبناء المعتمد وهم يدافعون عن ملكه ، ونقل هو نفسه وما تبقى من أسرته إلى مراكش ، وسجنوا في أغمات قريباً منها، وأثناء ذلك هربت زوجة أحد أبناء المعتمد مع أبنائها ، والتجأت إلى بلاط ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وارتدت عن الإسلام ، وأصبحت زوجة له ، وأنجب منها ابنه الوحيد شانجه ، الذي قتل فيما بعد ــ في معركة بين أبيه وبين المرابطين " .

---

(١٦) راجع مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام . محمد عبد الله عنان ص ٢٨٨ وما بعدها ، ط / الخانجي ، القاهرة .

(١٧) السابق ، ص ٢٩٠ .

(١٨) راجع : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة د . الطاهر أحمد مكي ، ص ١٧٨ .

إلى هذا الأمر من الممكن أن يكون عادياً وإن كان فيه كثيراً من الجور والظلم على المعتمد وأبنائه الذين ضحى بهم في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين ، وسوف نبين في السطور القليلة عكس ذلك تماماً من المصادر الموثوق منها وفيها ، ثم يستطرد الباحث قائلاً وهذا أعجب من سابقه " تلك هي الخطوط العريضة للقصة ـــ يعني قصة المعتمد عند العرب ـــ لكن الرواية الإسبانية الشعبية والرسمية والدينية ـــ يقصد الصليبية ـــ والعلماء فيما بعد فرحوا بالخبر والتقطوه وصاغوا حوله الأساطير ومنها : كنة المعتمد أصبحت ابنته ولم تعرب وإنما أهداها المعتمد نفسه لألفونسو ، لتكون عشيقته أو زوجته في أحسن الأحوال ، والحقيقة ما ذكرنا ، واسم هذه الفتاة سيدة ... " [١٩] .

فهذا تحامل على رجل من المسلمين وملك ذاعت شهرته في الآفاق ، ظل سلطانه في ازدهار زهاء عشر سنين وفي أيامه الأخيرة كان ملاذ العرب والمسلمين ، إلى أن تآمر النصارى ـــ لعنهم الله ـــ على العرب المسلمين جميعاً وأرادوا القضاء عليهم ، وهنا تظهر الحمية الإسلامية والغيرة الدينية، ويدعو يوسف بن تاشفين ـــ كما سوف يأتي ـــ إلى الجهاد في سبيل الله ، ويتحقق النصر ـــ كما مر ـــ في معركة الزلاقة ، وتذكر هنا ابناً صغيراً له كان مغرماً به تركه عليلاً في إشبيلية يكنى أبا هاشم :

أبا هـــاشم هشمتني الشـــفار ∴ فلله صـــبري لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج ∴ فلم يثنني ذكره للضرار[٢٠]

فكيف يكون بمثل هذه الشجاعة وتلك الغيرة ، ويتهم بالخيانة والضعف والجبن ؟ ويدفع الجزية للنصارى وألفونس السادس ملك قشتالة ؟ ويؤدي إليه الجزية صاغراً كل عام ؟ ويحاول ألفونس أن يسلبه بعض ممتلكاته .. وطلب من ذلك الملك المهزوم في معركة الزلاقة السابقة الذكر، النجدة ضد يوسف بن تاشفين والمرابطين ، وكان ذلك جرماً فظيعاً .. لا يحق له بعد أن يظل أميراً في موطنه ، وقاوم ، ولم تنفعه مقاومته فاستسلم [٢١] ، وهذا رأى فيه مبالغة وبعض الجور

([١٩]) راجع : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة د . الطاهر أحمد مكي ص ١٧٨ .

([٢٠]) السابق ص ٢٣٧ .

([٢١]) راجع : عصر الدول والإمارات " الأندلس " د. شوقي ضيف ص ٣٣٩ وما بعدها ، دار المعارف مصر .

على ابن عباد [٢٢] .

ورغم ذلك كله لم نعف ابن عباد من بعض الحيل التي سلكها مع أمراء المسلمين ، وعقد عهد وصلح في بعض الأحيان مع ملوك النصارى وخاصة ملك قشتالة ، لكن هذا كان قبل موقعة الزلاقة آخر عهده بالملك ، وإنما الأعمال بالخواتيم ، فقد رفض الخيانة والتآمر مع أعداء الإسلام حتى وإن صار مملوكاً يرعى الجمال ، وقال كلمته السابقة " رعي الجمال، خير من رعي الخنازير" .

يقول أحد الباحثين حول هذه القضية بعد أن تكلم عن سقوط طليطلة وما صاحبها من خطب جسيم : " ... وأدرك المعتمد بن عباد بالأخص وهو أشد ملوك الطوائف مسئولية عما حدث ، أنه لن يمضي وقت طويل حتى يواجه نفس الخطر الداهم ، بيد أن النكبة كانت في نفس الوقت نقطة تحول عظيم في تفكير أولئك الأمراء المتخاصمين المتنابذين .. فجنحوا جميعاً ولأول مرة إلى اجتماع الكلمة ونبذ الشقاق ، واتجهوا بأنظارهم جميعاً إلى ما وراء البحر يلتمسون غوث إخوانهم في الدين ، إلى أولئك البربر المرابطين ، الذين كان لتدخلهم في سير الحوادث بالأندلس ، أعظم الآثار" [٢٣] وعندما قيل للمعتمد بن عباد إن أميرهم سوف يطمع في البلاد ، ويسلب منكم الملك ، قال كلمته السابقة ، وقد حدث فقد طمع ابن تاشفين في البلاد وأسر ابن عباد فيما بعد وساقه في أغلاله إلى سجن أغمات ، كما جاء ذلك في نهاية الأرب " ... في سنة ٤٨٤ أتى يوسف بن تاشفين إلى سبتة ودخل العساكر إلى الأندلس .. فقصدوا مدينة إشبيلية فحصروا المعتمد ، وضيقوا عليه ، فقاتل قتالاً شديداً ، وظهر من شجاعته وشدة بأسه وحسن دفاعه عن بلده ما لم يشاهد من غيره ، فسمع الفرنج بقصد عساكر المرابطين بلاد الأندلس ، فخافوا أن يملكوها ثم يقصدوا بلادهم ، فجمعوا وأكثروا وساروا لمساعدة المعتمد وإغاثته على المرابطين ، فلما سمع بمسيرهم فارق إشبيلية وتوجه للقاء الفرنج وهزمهم ، ثم رجع إلى إشبيلية وداوم الحصار والقتال ، فعظم الخطب واشتد الأمر على أهل البلد ودخله المرابطون من واديه ونهبوا الأموال ، ولم يبقوا على شيء حتى سلبوا الناس ثيابتهم ، وخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم ، وأسر المعتمد

---

(٢٢) المرجع السابق .

(٢٣) راجع في ذلك مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام" محمد عبد الله عنان من ص٢٦٥ إلى ٢٧٨ ، والذخيرة لابن بسام ج ١ ص ١٢٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، ونفح الطيب للمقري ج ٢ ص ٥٢٣ ، ونهاية الأرب ـــ النويري ج ٢٣ ص ٤٥٥ ـــ ٤٦٠ وغيرها .

ومعه أولاده الذكور والإناث بعد أن استأصلوا جميع أموالهم . وقيل إن المعتمد سلّم البلد بأمان ، وكتب نسخة الأمان والعهد ، واستخلفهم على نفسه وماله وعبيده وجميع ما يتعلق به، فلما سلم إليهم إشبيلية لم يقوا له، وسير المعتمد هو وأهله إلى مدينة أغمات ، فحبسوا بها .. وبقي المعتمد في حبسه بأغمات إلى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (٤٨٨) ، فتوفى فيها وقبره بأغمات .. ، ويذكر النويري كذلك عن المعتمد ، وكان رحمه الله من محاسن الزمان كرماً وعلماً ورئاسة وأخباره مشهورة وآثاره مدونة [٢٤] .

ولما توفى المعتمد وقف ابن اللبانة ــ وكان شاعره ــ على قبره في يوم عيد والناس عند قبور أهاليهم ، وأنشد بصوت عال :

ملك الملوك أســـــامع فأنادي ∴ أم قد عداك عن الجواب عـــــواد

لما خلت منك القصور ولم تكن ∴ فيها كما قد كنت في الأعيـــــاد

قبلت في هذا الثرى لك خاضعاً ∴ وتخذت قبرك موضع الإنشـــــاد

وأخذ في إتمام القصيدة ، فاجتمع الناس كلهم عليه يبكون لبكائه وإنشاده .. [٢٥] .

وقد اعتبر ملوك الطوائف في الملمات الكبرى مفزعهم إلى المعتمد ابن عباد ، لأنه كان أشجع القوم ، وبذلك صار شهير الذكر بالمشرق والمغرب ، يقول ابن الأثير " وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس ، ومتملك أكثر بلادها " [٢٦] ، وقد أهلته صفاته لمكانته ــ هذه ــ لأنه ملك قمع العدا ، وجمع البأس والندى ، وطلع على الدنيا بدر هدى ، وذاعت أبهة ملكه حتى قال شاعره ابن اللبانة ، إن الدولة العبادية بالأندلس أشبه بالدولة العباسية ببغداد سعة مكارم، وجمع فضائل [٢٧]، ولا نريد أن نطيل أكثر من هذا هنا .

---

(٢٤) راجع النص في نهاية الأرب للنويري ج ٢٣ ص ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ط / الهيئة العامة تحقيق د . أحمد مكي ، د. محمد مصطفى زيادة .

(٢٥) راجع نهاية الأرب للنويري ج ٢٣ ص ٤٦٤ ، تحقيق د. أحمد كمال زكي ، د. محمد مصطفى زيادة ، ط / الهيئة سنة ١٩٨٠ م .

(٢٦) راجع : ابن الأثير في الكامل ج ١ ص ١٤٢ ، بيروت .

(٢٧) راجع : نفح الطيب المقري ج ٤ ص ٢٥٥ ، ج ١ ، ص ٤٣٨ ، بيروت سنة ١٩٦٨ م .

المبحث الثاني

صور ونماذج من الصدق الفني في شعر المعتمد بن عباد بعد الأسر

زخر شعر المعتمد بعد النكبة بالأسى والصدق الفني ، وتعددت أصواته التي نقلت إلينا عالمه النفس ، وما تمور به مشاعره تجاه تحول الأيام عنه ، فمن الملك والشهرة والقوة أو أسطورة البسالة والنبل ، يخرج الأمر من يده ، ويقتل من أولاده من يقتل ، ويساق أسيراً إلى السجن ؟ ! هذه طامة كبرى ، حتى قالوا عنه أنه عندما فوجئ بتطويق قصره من المرابطين ، رفاق الجهاد بالأمس " تصدى لهم المعتمد ، وليس على جسمه سوى غلالة رقيقة ، وأظهر ضروباً من البطولة لدرجة أنه كان يترامى على الموت لا درقة له ولا درع عليه .. " [٢٨] ، لأنه آثر الموت على الأسر ، وقتل قائد المهاجمين ، وضرب آخر فقسمه نصفين ، فقر المهاجمون وترامو خارج السور ، ثم عادوا بعد أيام .. وحدث ما حدث .

وقد واجه المعتمد الأسر والهزيمة معتصماً بدينه ، يرى أن ما حدث له ابتلاء الله ــ تعالى ــ له ولذلك يقول في هذا المعنى :

والملك يحرسه في ظـــل واهبه ∴ غلب من العجم أو شم من العرب
فحين شـــاء الذي آتاه ينزعه ∴ لم يجد شيئاً قراع السمـــر والقضب

أو قوله في موضع آخر :

اقنع بحظك في دنيـــــاك ما كانا ∴ وعز نفسك إن فارقت أوطـــانا
في الله من كل مفقود مضى عوض ∴ فأشعر القلـــب سلواناً وإيمانا[٢٩]

فأي صدق نراه في هذا الشعر الذي يفوض فيه صاحبه الأمر إلى القادر ــ سبحانه وتعالى ــ ويجعله من الابتلاء والاختيار ، إنه الإيمان القوي الذي ترجمه صاحبه إلى صدق في العمل أولاً بدفاعه واستماتته في القتال ، ثم بهذا الشعر القوي الصادق ؟ !!

([٢٨]) عبد الواحد المراكشي ــ المعجب ص ٩٨ .

([٢٩]) الذخيرة لابن بسام ، القسم الثاني ج ١ ص ٦٨ ، تح إحسان عباس .

وسوف يدور الحديث حول هذه النماذج التي سأختارها من شعر المعتمد بعد هذه النكبة التي حلت به وبأهل بيته دون مقدمات يمكن أن تؤدي إلى هذه النتيجة القاسية وفي هذه الحالة إما أن يختلط الأمر على الشخص وتتبدد نفسه وتطحنه أحداثها القاسية ، وإما أن يلوذ بربه ، ويركن إلى قوته وصلابته، فلا يتعذر عليه التصبر والتسليم لما قدره الله ـــ تعالى ـــ وهذا ما فعله المعتمد بن عباد ، أسطورة البسالة والنبل ، و " الملك الجواد العالم المعتمد على الله محمد بن الملك المعتضد ... "[٣٠] .

وسوف تعالج في هذه السطور مواقع الصدق في تجارب المعتمد الشعرية ، وكيف ظهر صادقاً في محنته الشديدة نبيلاً وبعيداً عن الزيف حتى في أتون هذه المحنة وهو يصطلي الأسر والقيد والسجن ، وقد انجلت قراءاتنا للصدق الفني في شعر المعتمد بعد النكبة عن أربعة اتجاهات رئيسة وهي :

١ . الاتجاه الأول : مع النفس :

ويأتي هذا الشعر الذي يمثل الصدق الفني الرائع في صورة نجوى ذاتية من داخل أعماق المعتمد عندما يتذكر ملكه ، ويسترجع عزته ومجده ، كما أنه يرفض الواقع المؤلم ، ولا يعترف به ، ويمكن أن ندرج هذا ونصنفه تحت ما يسمى " بالصراع الداخلي" وقد تنبعث هذه النجوى إما من أسباب خارجية تدفع إليها ، أو تحرك تداعيات توقظ عزته واستعلاءه على هذا الواقع المؤلم ، وإما أن تفيض بها نفس المعتمد الجريحة ، دون هذه الأسباب ، فتعاوده بتلقائية حين يقارن بين ما كان عليه وما صار إليه ، فيستعلي على النكبة ، وتحتشد في عواطفه كوامن مجده الذي يريده حياً أبداً ، فينطلق لسانه بهذا الصدق الفني الذي يعبر عن صاحبه بقوة ، لا يجيدها غير من كابد هذه المحنة وعاش هذا التحول المرير .

وهذا الاتجاه يشكل أهمية عظيمة ، حيث إنه يضم أكثر التجارب ، ويحمل ملامح الأنقة والصدق النفسي والفني بشكل واضح ، فحين أحس المعتمد نذر الفتنة وأحيط قصره في إشبيلية ، خرج بسيفه ليموت مقاتلاً ولا يعيش ذليلاً ، وهذا ما تحمله هذه الأبيات والتي جاء منها :

---

(٣٠) راجع رايات المبرزين لابن سعيد تحقيق د. النعمان عبد المتعال ص ٣٧ ط / القاهرة ، سنة ١٩٧٣ م .

لما تماسكت الدمـــوع ∴ وتنبه القـــلب الصريـــع

قالوا الخضوع سـياسة ∴ فليبد منك لهم خضـــــوع

وألذ من طعـــم الخضو ∴ ع على فمي الســـم النقيع [٣١]

هذا خيار المعتمد الذي يكشف لنا عن صدقه الفني والواقعي ، والذي جعل شعره باقياً بعد ذهاب صاحبه ، لقد استعلى الرجل على النكبة مؤثراً الموت في شرف وعزة على حياة الخضوع ، وهذه أولى النغمات الثلاث التي عزفها في هذه التجربة الأليمة هنا ، وقد تآزرت هذه النغمات في نقل تجربته إلينا ورسمها حيه نابضة متحركة لنراها ونحسها ونعيشها ، كما عاناها وعاشها ، وهذا هو عين الصدق ، والنقمة الثانية تزيد من هذا الصدق وتؤكده في نفوسنا ، بل تثير مشاعرنا نحو هذا الثبات مهما كان ثمنه ، ومهما حدث له ، يقول :

إن يسلب القـــوم العدا ∴ ملكي وتسلمني الجمـــــــوع

فالقـــلب بين ضلوعه ∴ لم تســـــلم القبـــــل الضـــلوع

لم أستلب شرف الطبا ∴ ع ، أيسلب الشرف الرفيع ؟!! [٣٢]

أي صدق هذا ؟ وأي تعبير وأسلوب يقف على معاني هذه الألفاظ وتلك الجمل التي تحمل طابع التحدي مهما كان الخصم والعدو قوياً ، فهم إن سلبوا ملكه وجردوه من كل ما يملك ، وجعلوه مع العبيد ، وإن أسلمه الجميع وخضع الكل للذل والهوان ، يرفض هذا الذل وتلك الاستكانة ، فقلبه مازال بين جبينه ، تحتضنه ضلوعه ، مازال فيه رمق الحياة ، فلن يستطيع الأعداء قهره ، لقد قهرهم بهذا الصدق ، وهذه الإرادة المركوزة في دمائه وطباعه وشرفه الرفيع ، لأن الشرف والأصل والعراقة ، كل هذه الأشياء لن يستطيع أحد أن يغيرها أو يسلبها أو يفضي عليها ، لأنها حقائق تاريخية واقعية تتحدث عن أصحابها حتى بعد فنائهم .

ثم النغمة الثالثة والأخيرة في هذه الأبيات ، دليلاً وبرهاناً عملياً يقرن الفعل بالقول ،

---

(٣١) راجع : أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ، ص ١٩٠ ، ودراسات أندلسية د. الطاهر أحمد مكي ، ص ٣٣٨ وما بعدها ، ط / دار المعارف بمصر .

(٣٢) راجع الأبيات في دراسات أندلسية د . الطاهر أحمد مكي ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ط . دار المعارف ـــ مصر .

ليسجل لنا المعتمد عظمة هذا الصدق مع النفس ، وبين لنا تلك الجسارة المعهودة عنه ، وعن بني عباد ، ويظهر أن تصديه للمهاجمين ، كان طلباً للموت في عزة النبلاء ، غير أن الأجل لم يحن بعد ، وهل هو إلا من بني عباد معدن المجد وحفدة المناذرة ؟ ، يقول :

قد رمت يوم نزالهم ∴ أن لا تحضني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ∴ ـص على الحشا شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسيـ ∴ ـيل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن ∴ بهواي ذلي والخضوع
ما سرت قطـ إلى القتا ∴ ـل وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهم ∴ والأصل تتبعه الفروع[٣٣]

وهذا الشعر الصادق في نبرته أعطانا من خلاله المعتمد صورة حية من الخارج لنفسه ، وكيف برز لهم بثبات وعزم ، فهو لم يلبس الدرع وتعمد أن يخرج إلى ساحة القتال مرتدياً ملابسه العادية التي تسير عورته ، وليس على صدره إلا القميص ، ولا يوجد شيء آخر يتقي به ضربات الأعداء " وبرزت ليس سوى القميص على الحشا .. ومن ثم فقد خلفت هذه التجربة في نفوسنا صورة لإباء المعتمد واستعلائه على النكبة ، كما كشفت مبادئ بني عباد وركونهم إلى العزة التي تضرب بجذورها إلى ملوك الحيرة .

وبرغم المباشرة التي طبعت هذه القصيدة ، فقد أضفى عليها طابع القص والسرد حيوية ممتعة تلعب بالمشاعر ، وتأسرها إعجاباً بالموقف النبيل لهذا الملك والشاعر ، إضافة إلى أن تداعياتها أوسع دلالة من معانيها الشعرية المطرزة بشارات العزة وعبق الملك من مثل قوله : " وألذ من طعم الخضوع السم " أو قوله : " لم أستلب شرف الطباع " ، وهذا يشير إلى الإيمان ببقاء العزة ودوامها باعتبارها طبعاً شريفاً لا يستلب ، كما يشير ذلك أيضاً إلى ثبات القلب بين الضلوع ، ودوام نبضه دليلاً على الحياة .

---

(٣٣) راجع : الأبيات في دراسات أندلسية ، د . الطاهر أحمد مكي ، ص ٣٣٩ ، وما بعدها ـــ مرجع سابق . وابن عباد في الديوان ، ص ٨٨ .

أما قوله : " بذلت نفسي كي تسيل .. " وقوله : " وكان من أملي الرجوع .." وقوله : " أجلي تأخر " إشارات إلى بطولته وجسارته ، التي اشتهر بها ، ومظاهر هذه البطولة في مثل هذه العبارات واضحة بجلاء ، وتأتي عبارة " والأصل تتبعه الفروع .. " كحقيقة ثابتة لا يختلف عليها اثنان ، في كل زمان ومكان وهو يبرهن من خلالها على عراقة أصله وطيب محتده ، وهذا ما جعله يمثل هذه الصورة التي رسمها لنا في لقائه بالأعداء ودفاعه عن الشرف والكرامة .

ولقد أغنى أسلوب القص، وهذا الترابط والتسلسل بالقصيدة عن الاستعانة بالخيال كثيراً ، لأن الحقائق أقوى تأثيراً في المتلقي ، وأبعد تأكيداً في نقلها إليه ، وهذا ما يفيده الصدق الفني والواقعي ، وهذا الصدق واضح جلي في بث مواجد المعتمد ، يحمل ملامح صاحبه في صراحته وشرفه ، وشجاعته ، كما يميزه شاعراً صاحب لغة طيعة سهلة ، عالية الأداء .. وقد لعب التكرار دوراً بارزاً في نقل هذه التجربة ، فعندما يرفض المعتمد الخضوع للأعداء ، يوظف التكرار توظيفاً ناجحاً ، فيأت الخضوع الأول في سياق الاستهانة به ، وبمن يعرضه عليه ، والتحقير من التوجه إليه ، ولذلك يقدم الشاعر لفظ " قالوا " على لفظ " الخضوع " حتى لا يلتفت له ويجعله خلف ظهره .

أما " الخضوع " الثاني فيأتي ذكره ليوضح إلى أي مدى اشتهى الأعداء أن يروه خاضعاً ذليلاً ، ولو في أقل الدرجات ، أما الخضوع الثالث " فإن الموت أهون منه ، وهذا الخضوع المرفوض قطع على الأعداء ولو مجرد التفكير فيه لأن الموت دونه .

وكذلك الفعل المضارع " يسلب " الذي جاء ثلاث مرات في سياق الشك ، ليبدأ المعتمد بقطع الطريق عليهم حين ظن الكثيرون أن سلب الملك أو وقوعه في الأسر يتبعه الكذب والمراوغة أو التحلي عن شرفه وأصله ، ليأت المضارع الثاني بنفي جازم لا تردد فيه بأن هذا الصدق وذلك العزم والشرف .. كل هذه الأشياء باقية ببقاء القلب النابض ــ حتى وإن كان صاحبه في الأسر والقيود ، ويأتي المضارع الثالث في أسلوب استفهام إنكاري تقريري يجعلنا واثقين من أن شرفه الرفيع لا مجال فيه للمساومة ، لأنه طبع راسخ أبداً .

وفي قصيدة أخرى يظهر الصدق الفني والواقعي في مناجاة المعتمد لنفسه ونرى خواطره واضحة جلية ، عندما ردّ فيها على رجل حكى له رؤياه : أن ملك بني عباد إلى زوال، وفي هذه التجربة يتبدى الصدق ــ كما قلنا ــ واضحاً ، وكذلك تكوينه الديني وثقافته الواسعة .. وهذه

القصيدة من خلال قراءتها تتوزعها ـــ كسابقتها ـــ أصوات ثلاثة تآزرت في نقل أحاسيس المعتمد تجاه تلك الكارثة ، وكذلك تبين صلابة بنائه النفسي ، وتجسد الصدق الفني ، ويكشف تلاقي هذه الأصوات صدق المعتمد ورسوخ إيمانه وصلابة عزيمته أمام كبريات النوازل ، فيقول في الصوت الأول :

إيها الناعي إلينا مجدنا ∴ هل يضير المجد أن خطب طرق
لا تدع للدمع من آماقنا ∴ مزجته بدم أيدي الحـــرق
حنق الدهر علينا فسطا ∴ وكذا الدهـــر على الحرّ حنق[٣٤]

ونرى أن هذا أول صوت ينبعث من هذه القصيدة المؤثرة والمنبعثة من تلك العاطفة الحزينة، لكن المعتمد بدأها بمثل هذه القوة والصلابة والتحدي ، وتقبل القدر والرضا بما يخبئه هذا الزمان ، لكن هذا لا يستر شهرة بني عباد ، ولا يواري صدق المعتمد في نقل هذه التجربة القاسية ، وهنا يأتي الصوت الثاني في القصيدة فياضاً بذكر صفات الفخر والعزة والاعتداد بحسبه وأصله الضارب بجذوره في العزة والشرف والسيادة فيقول:

مَنْ عزا المجد إلينا قد صدق ∴ لم يلم مـــن قال مهما قال حق
مجدنا الشمـــس سناء وسنا ∴ من يرم ســـتر سناها لم يطق
وقديمـــــاً كلف الدهـــر بنا ∴ ورأى منا شموســـاً فعشـــق
قد مضى منـــا ملوك شهروا ∴ شهرة الشمس تجلت في الأفق
نحن أبناء بني مـــــاء السما ∴ نحونا تطمح ألحـــاظ الحدق[٣٥]

والمعتمد هنا يعيدنا إلى الفخر القبلي ، ويذكرنا بعمرو بن كلثوم ، ودريد بن الصمة وغيرهم من شعراء الفخر القبلي والجماعي الذين تفانوا وذابوا في قبائلهم ، وهذا يؤكد لنا حقيقة أخرى ، وهي أن المعتمد غير خامل الذكر في المجتمع الذي يعيش فيه ، وليس في حاجة للحديث عن نفسه وإنما يريد أن يتكلم عن قبيلته وأصله ـــ بعد مضي ثلاثة عصور أدبية ليسعفه في تأكيد مجدهم الممتد منذ ملوك الحيرة أرباب الخورنق والسدير، وليس لأحفادهم إلا ما يليق بالآباء والأجداد ،

(٣٤) الحلة السيراء لابن الآبار القضاعي تحقيق رينهارت دوزي ص ٦٩ .
(٣٥) الحلة السيراء ـــ مرجع سابق ، ص ٦٩ وما بعدها .

والشيء إذا جاء من أصله ومعدنه لا يستغرب ، فهذا صدق المعتمد الفني والواقعي ، يستعلي في هذا الصوت بعزته وكرامة آبائه وشهرة أجداده ، ويأبى في ختام التجربة إلا أن يعود من الفخر الجاهلي، فيركن إلى عقيدته الراسخة ، وذلك الإيمان القوي، الذي يجعل كل مصيبة بعيداً عن الدين فهي هينة ولا قيمة لها ، وهنا يأتي صوت الختام ، فيحمد الله أن لم يجعل مصيبته في دينه ، فقد شبع ملكاً ومكانة ، وبقي له في نفسه فوق ما ذهب من يده ، وهذا ما يجب أن يفعله المؤمن الصادق ، فله في الأنبياء الأسوة الحسنة وفي الأولياء والصالحين القدوة والعزاء يقول :

وإذا ما اجتمـــع الديـــن لنا ∴ فحقير ما من الدنيا افترق

حججاً عشراً وعشراً بعدها ∴ وثلاثين وعشرين نســـــق

أشرقت عشرون من أنفسها ∴ وثلاث نيرات تأتـــــلق[٣٦]

إن بيتاً يبقى في الملك ما يقرب من قرن من الزمان لهو بيت أنجب الملوك والعظماء الذين لا تغيب لهم شهرة ، ولا يغفل عنهم تاريخ ، وعندما يتكلم الشاعر عن فترة ملكهم يجعلها تأتلق شهرة وضياء ، ولكن لكل شيء نهاية ، ولكل أول آخر ، وهكذا الدنيا .

وإذا نظرنا إلى أسلوب الشاعر وتعبيراته ، وصدقه الفني والواقعي من خلال هذه الأبيات نجد كثيراً منها لافتاً للنظر ، ففي الصوت الأول مثلاً : يتجاور المجد والشرف والملك مع العزاء والنعي ، والخطوب والدموع ، ليصنع هذا التجاور لوناً من المفارقة الحادة التي تكشف ذيوع مجدهم وغلبة شهرتهم ، مع تكرار المجد ، وهذا جلب عليهم الحسد من الناس والأعداء والحنق من الدهر .

وإذا نظرنا إلى الصور البيانية نجدها قد سهلت وصول التجربة إلينا تشخيصاً وتجسيماً ، وأظهرت صدق المعتمد في كل ما يرسمه ويلفظ به لسانه ، وتجيش به عاطفته من مثل قوله : " أيها الناعي إلينا مجدنا " ، وقوله : " هل يضير المجد إن خطب طرق " وقديماً كلف الدهر بنا " ، وقوله " حنق الدهر علينا " و" ملوك شهروا شهرة الشمس " و" رأى منا شموساً "، والتعبير بضمير الجماعة يجسم مجده وشرفه وأصله وصدقه في نفس الوقت، ويجلي عظمته ويسعفه في فخره الضارب في المجد والتاريخ معاً من مثل قوله : " عزا المجد إلينا " ــ مجدنا " نحونا تطمح " ونحن أبناء بني ماء السماء

(٣٦) الحلة السيراء ــ المرجع السابق ، ص ٧٠ .

.. وهذا يكشف اعتداد الرجل وهو صادق فيما ذهب إليه ، وقد وفق في التعبير عنه ، حيث علت الأنا القصيدة ليعلو المعتمد على الحدث وأخيراً يوظف التجنيس لإفشاء الحس الموسيقي المعين على التجربة من مثل قوله : " سناء وسنا " بجانب التصريع في المطلع ، واستمرار الروي الساكن مما يعكس رزانة الملوك ، وصدق الشعراء ، وعظمة أحلامهم .

٣ ــ ومن هذه القصائد أيضاً التي ناجى فيها المعتمد نفسه ، وتكلم فيها مع ذاته ، تلك الأبيات التي نظمها عندما سيق معتقلاً إلى المغرب ، وقيل إنه طلب من حواء بنت تاشفين أن تعيره خباء فاعتذرت ، فقال رائيته الرائعة ، والتي جاء فيها :

هم أوقدوا بين جنبيك نارا ∴ أطالوا بها في حشاك استعـــارا
أما يخجل المجد أن يرحلو ∴ ك ولم يصحبوك خباءاً معـــارا
فقد قنعوا المجد إن كان ذا ∴ ك وحاشاهم منك خزياً وعـــارا
يقل لعينك أن يجعلـــــــوا ∴ سواد العيـــون عليكم شعارا [٣٧]

وفي هذه الأبيات يبين لنا أن هذا الاعتذار ما هو إلا رسالة موجهة إلى المعتمد وهي أنها ليست مجرد خباء ، وإنما أكبر من ذلك ، إنها محاولة لإذلاله ، وعبث بمشاعره وإهانته ، واستخفافاً بمكانته ، فسرت العزة في دمه ، واستعلى على نيل هذه الصغائر التي لا تصدر إلا من الصغار أمثالهم ، ولقنهم درساً في التحضر وطريقة التعامل مع الملوك والسادة والعظماء ليبقى هذا الدرس على مر السنين ، ويبين لهم أن ما فعلوه إنما هو سبة في جبين المجد والشرف ، وسوف يجلب لهم الخزي والعار، فكيف يحاولون طمس مجده، وهم لا يملكون الوفاء بما فعله لهم..

وفي التعبير عن محاولتهم الفاشلة ، وشدة لؤمهم ، يوظف خياله في مثل " أوقدوا بين جنبيك ناراً " و " أطالوا بها استعارا " في عبارتين وضحتا حرص أعدائه على الاستمرار في اللؤم والصغار والحمق ، بطريقة تكشف عجزهم عن معاملة الملوك الصادقين ، وهذا ينافي المروءة .

هذه النماذج وتلك التجارب والقصائد التي سبق أن ذكرنا بعضاً منها، كانت حديثاً بين المعتمد وبين نفسه ، بعد أن دفعه إلى هذا الحديث مؤثر خارجي ، وربما يكون هذا الحديث قد لا يحتاج إلى دافع أو مؤثر خارجي، لأنه يفيض تلقائياً في داخل النفس ، عندما يقارن فيه المعتمد بين ما

(٣٧) راجع : المعتمد في الديوان ، ص ٩٧ .

كان له في عظمة الملك وسطوته ، وما صار إليه أمره ، حين فلّت الأيام ملكه وقضى الدهر عليه ، وقد كثرت هذه القصائد التي جاءت بدون مؤثر خارجي، ولكن اختار منها ما يلي :

١ ــ في أولى تجاربه هذه تعقد الدهشة عقله فيكاد لا يصدق ما حدث، لاسيما وهو يعتبر أصل المروءة ، وفيض جود يغمر المعتفين سيبه ، ونداه عم الخلائق ، وصدق ابن اللبانة ، إذ قال عنه:

أنت علمتني السيادة حتى ∴ ناهضت همتي الكواكب قدرا
لم تمت إنما المكارم ماتت ∴ لا سقى الله بعدك الأرض قطرا (٣٨)

إنه الشجاع الذي لا نظير له أو لشجاعته ، والشاعر الذي أكرم الشعراء ، وقطع ألسنة الوشاة وترفع عن الصغائر، وهزم أعداءه ، فكيف يحدث له ما حدث ؟ : يقول المعتمد في هذه التجربة :

قبح الدهر فماذا صنعا ∴ كلما أعطى نفيساً نزعا
قد هوى ظلماً بمن عاداته ∴ أن ينادي كل من يهوى لعا
من إذا الغيث همي منهمرا ∴ أخجلته كفه فانقطعا
من غمام الجود من راحته ∴ عصفت ريح به فانقشعا
من إذا قيل: الحنا صم وإن ∴ نطق العافون همساً سمعا
قل لمن يطمع في نائله ∴ قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوة ∴ جبر الله العفاة الضيعا (٣٩)

وهذه الدهشة وذلك العجب الذي رسمه المعتمد في صوره لما خبأه القدر، ويأتي هذا الصدق في التعبير من عنف المفاجأة ، لأن السلب بعد العطاء عظيماً لا يطاق ــ نعوذ بالله منه ــ ، ومن المعروف أن المعتمد كان مصدر المروءات بالأندلس ، فكيف جرى له ما جرى ؟ وأين يذهب العفاة الضائعون ؟ والفقراء المحتاجون ؟ وهو لا يملك لضياعهم بعد زوال ملكه إلا الدعاء ، بأن يجبر الله كسرهم ، ويغنيهم من فضله وجوده ، وهو لا يلعن الدهر فهذا منهي عنه شرعاً ، وإنما جعل ما

(٣٨) راجع : المعتمد في الديوان ص ١٠٨ .
(٣٩) راجع المعتمد في الديوان ص ١٠٨ .

حدث قبيحاً مرفوضاً ، وقد ثار المعتمد على طالعه ثورة عارمة جعلته يقرع هذا الطالع " قبح الدهر فماذا صنعا ؟ " ليكشف دهشته ومفاجأته ، وقد وفق كثيراً حين عثر على الأسلوب المناسب للكشف عن هذه الدهشة بأسلوب الطباق الذي أبرز التناقض وسجل المفارقة المؤلمة بين ما كان فيه وما صار إليه ، ولم يخل بيت من هذا الطباق الذي وظفه بإتقان في رسم صورة تثير الاستغراب ، وتضاعف الدهشة أمام تقلب الأيام وسرعة مداولتها وتغيرها أمام البشر " وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. " .

وقد جاء الطباق ــ كما ذكرنا ــ من مثل : " أعطى " نزعا ، وهوى ظلما ــ ينادي لعا ، وهمي فانقطعا ، الجود من راحته ، فانقشعا ، صم ــ سمعا ، ويطمع ــ البأس ... الخ .

إن صدق المعتمد يكمن هنا عندما صمد للدهر ، وقد فعل به ما فعل ، وهو لا يعبأ بتلك الأحداث ولا يفكر في نفسه أو مصيره ، وإنما يفكر في الرعية والضعفاء ، والمعتفين الذين ضاعوا بعده ، إنه في الخاتمة يدع انقلاب الأيام عليه ويتركه جانباً ، وبدلاً من أن ينشغل بمأساته ، نراه يخلد إلى التفكير في قضاء حوائج المحتاجين ، فمن لهم بعده ؟ وهو لا يملك لهم إلا الدعاء .. ؟ !!

٢ ــ أما التجربة الثانية من حديثه مع نفسه ــ أيضاً ــ وهو حديثه عن الأسر وأخباره ، وقد جاء هذا الخبر كالصاعقة على الناس ــ خاصة المقربين لديه ــ ، واسمعه يقول في هذه التجربة :

أنبـاء أسـرك قـد طبقن آفـاقا ∴ بل قد عممن جهات الأرض إفلاقا
سرت من الغرب لا يطوي لها قدم ∴ حتى أتت شرقهـا تنعاك إشراقا
فأحـرق الفجـع أكبـاداً وأفئدة ∴ وأغرق الدمع آماقـاً وأحـداقا
قد ضاق صدر المعالي إذ نعيت لها ∴ وقيل إن عليك القيد قد ضاقا[٤٠]

وهنا يرسم المعتمد لوحة فنية رائعة لعلاقته بالناس حتى بعد زوال ملكه ، فمكانته ومحبته باقية في قلوب الناس ، وإن حبهم له لن ينتهي بانتهاء حكمه أو معروفه ، أو عند أسره من قبل الأعداء .

وقد وضحت هذه الأبيات مظاهر هذا الحب والإكبار من الرعية للمعتمد في عدة أمور ،

(٤٠) المعتمد في الديوان ، ص ١١٠ .

تكلم بها مع نفسه منها :

١ ــ سرعة انتشار أسره في الآفاق .

٢ ــ القلق الذي عم الأنحاء .

٣ ــ الحزن العارم الذي مزق الأكباد ، فبكت العيون طوفاناً من الدموع ، أما المثل العليا والمروءات فهي في ضيق وكرب لا ينتهي .

وانظر إلى هذه الصورة التي رسمها بمثل هذه الكناية ، وهي تعني الإحاطة والشمول " طبقن آفاقا " ، أو " عممن جهات الأرض " صورة لهذه الأبناء المفزعة والأخبار المؤلمة الشديدة ، وهي أخبار وأنباء أسره ــ ولا يكاد يصدقها أحد ــ إنه يخاطب نفسه ويحدثها قائلاً : انظري إلى هذا الحب والوفاء والأمان الذي زال ... أما الاستعارتان : " لا يطوي لها قدم " ، " أتت شرقها تنعاك " فقد كشفتا عن سرعة التعاطف مع المعتمد ، وأظهرتا له ما في القلوب التي حزنت عليه ، وشق عليها ما ألم به ، وكذلك تجاوب الناس جميعاً بسرعة هائلة حول مثل هذه الأنباء المؤسفة، أما صدمة الناس فتشير لها الاستعارتان : " أحرق الفجع أكباداً وأفئدة " و" أغرق الدمع آماقاً وأحداقاً " ، إن صدق المعتمد الفني وعاطفته في تجربته الصادقة ، جعلت من مثل هذه الأخبار فجيعة مؤلمة قد أنت على الأكباد والأفئدة فأحرقتها ، وهذا أبلغ الحزن والأسى ، أما البكاء فقد كثر حتى صار طوفاناً يغرق العين، ويسدها سداً ، ونستطيع أن نفسر هذه الصورة بأنها موكب جنائزي حاد يكشف ما للمعتمد من حب وإخلاص في قلوب رعيته ، وحسبه من هذا الحب أن يبقى حياً في صدور الناس تحرسه مآثره النبيلة المحفورة في حواشيها .

٣ ــ أما المثال الثالث لحديث المعتمد مع نفسه ، فيتمثل في حديثه عن المكان ، والمعروف أن مكانه ليس كغيره من أماكن الرعية ، إنه مكان يرتبط به ملك ، فهو قصور وعروش وجنات في الأرض إلى آخر ما تتصور من عظمة المكان .

وحتى لا يطول بنا المقام، نذكر هذه الأبيات القليلة من هذه القصيدة، عندما تحدث مع نفسه عن قصوره الباكيات :

بكى المبارك في إثر ابن عباد ∴ بكى عــلى إثر غــزلان وآســاد

بكت ثرياه لاغمت كواكبها ∴ بمثــل نــوء الثريا الرائح الغادي

بكى الوحيد بكى الزاهي وقبته ∴ والنهـر والتـــاج كل ذله بادي
ماء الســـماء على أبنائه درر ∴ يا لجة البحر دومي ذات إزبادي[٤١]

بهذه الأبيات الأربعة بين لنا الملك المخلوع والمسجون في أغمات هذه الصورة الحزينة والباكية ، حتى من الجماد ويستعيد بذلك شواهد ملكه السليب ، ويحكي بكاء القصور عليه ، وعلى أسرته التي سكنتها وعمرتها أيام العز، ومن يمعن النظر في هذه الأبيات يجدها باكية صادقة ، مؤثرة ترسم الوفاء للملك ، وتصور حبه الساكن فيها له ولأسرته ، وكما نعلم ـــ للمكان حضوره في مثل هذه النكبات ـــ لأن مشاهد الحياة ترتبط بالمكان والزمان ، وتحرك الذكريات الكامنة ، وتفجر تداعيات هامة تسهم كثيراً في رسم مشاعر المبدعين ، وتظهر بوضوح صدقهم الفني والواقعي .

والبكاء على الأطلال أمر عرفه الشعراء القدامى ، وكان من نهجهم في قرض شعرهم والتعبير عن وجدانهم ومشاعرهم ، منذ أن سنه الملك الضليل " امرؤ القيس " فطاب للشعراء بعده ، وباركه النقاد القدامى ، ومن هنا جعل المعتمد قصوره هي الباكية عليه ، وبذلك نلحظ تفوق المعتمد وتجدده لنظم القصيد وطريقة التعبير ، وكان المعتمد صادقاً عندما بكى على قصوره ، وعندما جعل القصور هي التي تبكي عليه ، ومن هذه القصور التي ذكرها ، المبارك والثريا والوحيد والزاهي ، كلها بكاء ، وكذلك قبابها تبكي ، والتيجان والنهر الكبير، لم يبق شيء حتى أجداده المناذرة الذين في عداد الموتى ، قد بكوا عليه أسفاً وتعاطفاً .

ولقد لجأ المعتمد ـــ كعادته ـــ إلى عدة وسائل تعبيرية لإظهار هذه المناجاة للنفس ، ولبيان صدقه الذي ملك على المتلقي قلبه ونفسه ، وأرغمه بهذا على معايشته ، بل والبكاء أكثر من مرة ظاهراً وباطناً ، لأن العطف يقتضي تكرار العامل ومنها " بكى الزاهي وقبته والنهر والتاج " ونرى في تكرار البكاء إلحاح على صدق ما له من مودة وحب حتى لدى الجمادات التي أحبته فبكت فراقه وأحست رحيله ، وتشخيص القصور بإسناد البكاء لها فيه ما فيه من الارتباط بها والحنين إليها ، وكأن المشاركة الوجدانية قائمة بينهما تفعل فعلها .

ولا يكتفي المعتمد بهذا البكاء ، بل يطلب استمراره ودوامه " يا لجة البحر دومي ذات

(٤١) راجع : قلائد العقيان للفتح بن خاقان تحقيق د. إحسان عباس ص ٢٤ .

إزباد " ونلاحظ التورية " بماء السماء " إشارة إلى عمق المأساة التاريخية ، حيث يبكيه المناذرة ، وهذا تخليد لمأساته هو .

٤ ــ وأخيراً نذكر هنا المثال من حديث المعتمد لنفسه ، وفيه يحدثها أنه لم يفقد طموحه في انفراج هذه الغمة ، لكن عناد الخطوب يقف له بالمرصاد ، وكذلك الأيام لا تثبت على حال ، فماذا قال ؟ :

نؤمل للنفـــس الشجية فرجـــة ∴ وتأبى الخطوب السود إلا تماديا

لياليك من زاهيك أصفى صحبتها ∴ كذا صحبت قبل الملوك الليـــاليا

نعيـــم وبؤس ذا لذلك ناســـخ ∴ وبعدهما نسخ المنايا الأمانيا (٤٢)

وهنا نرى أن من حق المعتمد أن يأمل في انفراج الضيق وتيسير الأمور ، لأنه أخذ غدراً وحقداً دون جريرة ، بعد أن بالغ في مودتهم وتوفيرهم والوفاء لهم ، فهو القائل لقائدهم يوسف بن تاشفين :

ولولاك يا يوسف المتقى ∴ رأينـــا الجزيرة للكفـــر دارا

ستلقى فعالك يوم الحسا ∴ ب تنشر بالمسك منك انتشارا

وللشهداء ثنـــاء عليـــك ∴ بحسن مقامك ذاك النهارا (٤٣)

إن أحلامه هنا في الانفراج ، تدخله إلى تذكر لياليه التي ملأها أنساً وسعادة ، وقد ضمتها قصوره الفواحة بأريج العز ، وطيب الرضا ، لكن تعاور النعيم والبؤس ، قدر المؤمن والمنايا لا تبقى ولا تذر ، إن المعتمد في هذه التجربة التي تقع بين اليأس والرجاء يلجأ إلى عدة وسائل ناجحة ، ومنها هذه المقابلات التي تلائم التأرجح هذا، وذلك مثل" المنايا ــ الأمانيا "، " تؤمل ــ تأبى "، " النعيم ــ البؤس " وكلها تعين على إبراز الصدق الفني لهذا الشعر المؤثر ، ويعين كذلك على إبراز طبيعة الأيام وتقلبها بالناس ، وصعوبة الاطمئنان بها أو الركون إليها ، وكذلك تأتي مثل هذه الاستعارات " تأبى الخطوب " و" صحبته الملوك الليالي " لتؤكد نفس المعنى وهو أن دوام الحال من

(٤٢) راجع قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ٢٦ سابق .

(٤٣) المعتمد في الديوان ص ٩٧ ، ٩٨ .

المحال ، وأن الثبات لا يدوم وإنما إلى تغير ، والأيام منتقلة " كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْن " .

٢ ـ الاتجاه الثاني مع أسرته : أ ـ مع الزوجة :

وقد كثر هذا الحديث على حسب مكانة تلك الأسرة وقربها من المعتمد ، وكذلك من الرعية ، ونرى أن نبدأ حديث المعتمد عن الأسرة بالركن الثاني منها ـــ بعد المعتمد وهي ـــ " الزوجة " واعتماد الرميكية أخذها عن حب وتزوجها عن عشق ، وهي قريبة من قلبه دائماً ، ولقد عبر لها عن حبه بطرق شتى ، شهيرة ومعروفة في التاريخ ، لا تزال تروى قصصها ، ولن تزال ، وهي الآن تحاوره عما صار إليه حال المعتمد في إجلال وتسأله عما ذهب من سلطان وجاه ، ويجيبها المعتمد في صدق وبساطة وإيجاز ، يقرن كل ذلك بالأداء الفني المؤثر ، قائلاً في إيمان وصبر :

قالت : لقد هنّا هُنَا ∴ مولاي أين جاهنا ؟
قلت : لها إلى هنا ∴ صيّرنا إلهنـــا (٤٤)

والتسميط هنا بقوافيه الأربع يعزف في النص لحناً شجياً ، وقد جاء في عفوية تامة وإيجاز شديد ، فالمعتمد موقن الإيمان بأن ما حدث قدر الله، لا راد له ، وهو رد يليق بالموقف ، ويلعب الحوار دوراً هاماً في هذا الموقف ، وهو الكشف عن الإيمان العميق للمعتمد ، وعقله الراجح ، وقد جاء توزيع الإيقاع موفقاً من حيث القافية المتقنة التي جاءت نهاية طبيعية للمعنى ، ثم حسن اختيار حروفها الملائمة للموقف الشعوري ، حيث النون المتبوعة بألف لينة ، تتسع للتأمل والإقناع ، وجاء أيضاً هذا التوزيع موفقاً من التجنيس الذي توزعت موسيقاه على أبعاد ثابتة مشجية ، فرجعت نغماً ثابتاً تطيب به النفس ، وتنتظره ، ويقع هذا بين " هُنَّا وهُنَا " وبين " هنا وإلهنا " وأخيراً يأتي هذا التوفيق من التكرار ، فقد جاء حرف الهاء حوالي (ست مرات) مما أفسح المجال لتنهدات وتفريج ما بالصدور والجوانح .

ثم يختم تجربته بالتسليم ، ويرد الأمر كله لله تعالى ، من قبل ومن بعد ، وقد قالت له زوجته اعتماد الرميكية ـــ على سبيل المداعبة بعد النكبة " ... ما رأيت منك خيراً " فقال لها "

(٤٤) المعتمد في الديوان ص ١١٤ .

ولا يوم الطين " فاستحيت وسكتت " [٤٥] .

ويوم الطين هذا له قصة غريبة وعجيبة معروف في كتب الأدب الأندلسي وتاريخه ــ لا داعي لذكرها هنا ــ [٤٦] .

٣ ـ مع بناته :

لقد حركت بناته همومه الدفينة ، وأشعلت في قلبه نيران الحزن ، وخلفن له أسى وحسرة لم تخلفها له الأحداث على كثرتها لضعفهن وقلة حيلتهن ، وسرعة تغيرهن من النعيم إلى البؤس والشقاء ، وهذا وحده مما يوجع القلب ويمزق الكبد ، وربما يكون هذا طبعاً وسجية عند الرجل العربي على وجه الخصوص ، وقد كان الإسلام حكيماً عندما جعل المرأة بعامة والبنت بخاصة في كفالة وولاية رجل ، فالمرأة هي العرض والتي ينبغي أن يموت الرجل ، مدافعاً عنها " من قتل دون عرضه فهو شهيد " فالرجل يكون أكثر حرصاً وأشد غضباً عندما تتعرض المرأة لشيء من الإهانة ، ويبذل في سبيل حمايتها كل ما يملك ، وعلى كل يكون حرصه عليها أشد وأقوى من الولد .

وأول نموذج نلتقي به هنا من حديث المعتمد لبناته ، هذه الأبيات وذلك عندما عاد أبو العلاء زهر بن عبد الملك طبيب القصر الملكي ــ السابق ــ من مراكش ، فطلب منه المعتمد أن يزور ويعود بناته معالجاً لهن ، فهن في حاجة إلى طبه أكثر منه ، ففعل هذا الطبيب ، ودعا للمعتمد بطول البقاء ، فنكأ دعاؤه الجرح ، وبعدها كتب المعتمد هذه القصيدة وأرسل بها إليه ، ومنها :

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى ∴ أسيراً أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة ∴ يطول على الشقى بها الشقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتي ∴ عواري قد أضربها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى ∴ مراتبه إذا أبدوا النداء [٤٧]

---

(٤٥) راجع المقري ــ نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٠ .

(٤٦) راجعها في كتب الأدب الأندلسي ومنها : عصر الدول والإمارات " الأندلس " شوقي ضيف ، ص ٤٩ ، وسنذكرها في موضع آخر من هذا البحث .

(٤٧) المعجب ــ عبد الواحد المراكشي ، ص ١٠٩ .

وهنا ترتكز التجربة على تصوير آلام طفح بها الكيل تعصر قلب الشاعر حتى كره العيش ، وآثر الموت ، فالمعتمد يسجل في هذه الأبيات تناقضاً مؤلماً بين يومين في حياته . اليوم الذي كان لهن ، واليوم الذي أصبح عليهن ، وهو شديد القسوة على نفسه، عندما رآهن خدمات ذليلات حافيات يخدمن لكسب قوتهن ، حتى لو كان المخدوم ابنة المنادي المنظم لمسيرة موكب أبيهن سابقاً .

لقد اضطربت الرؤى الشعرية أمامه واهتزت ، ففي البداية يفضل الموت هرباً من الشقاء فيرفض الدعاء بالبقاء وطول العمر ، الذي تمناه الطبيب ابن زهر ، ثم يعود آخر القصيدة ليتقبل الدعاء ، ويطري صاحبه داعياً له قائلاً :

ولكن الدعـــاء إذا دعـــاه ∴ ضمير خالص نفح الدعاء

جزيـــت أبا العـــلاء جزاء بر ∴ نوى بسراً وصاحبك العلاء

سيسلي النفس عمن فات وعلمي ∴ بأن الكل يدركه الفناء (٤٨)

ثم يدخل المعتمد في بؤرة المأساة ، وفي أعماق نفسه ، وهنا يتجلى صدقه ، يقول في قصيدة أخرى عندما رأى بناته يوم العيد ، ورأى من ذهن وفقرهن وقهرهن ما رأى ، انتفض ليجد نفسه عاجزاً فعلى صوته بقصيدته الشهيرة في العيد ، وهو سجين بأغمات :

فيما مضى كنت بالأعياد مســـرورا
فساءك العيد في أغمـــات مأســـورا

ترى بناتك في الأطمار جائعـــــة
يغزلن للناس ما يملكن قطميـــــرا

يطأن في الطين والأقدام حافيـــة
كأنها لم تطأ مسكاً وكافـــــورا

(٤٨) المعجب ــ عبد الواحد المراكشي ، ص ١٠٩ .

قد كان دهـــرك إن تأمره ممتثـــلاً
فردك الدهر منهياً ومأمـــــــورا

من بات بعدك في ملك يســـر بـــــه
فإنما بات بالأحـــلام معـــــرورا (٤٩)

إن فتك الزمان بفلذات الأكباد ، وعجز الآباء لهو أقسى ما يعانيه الحر، وما بالك إذا كان ملكاً خر من عليائه ؟ لاشك أن مأساته تكون مضاعفة ومصيبته قاسية ، والخطب يحز في الأكباد الجريحة ، لأنه لا يملك إلا تذكر عزه ومجده ، وإبراز التباين بين الأمس واليوم ، بين أبيهن عندما كان آمراً للدهر ، وبين اليوم عندما أصبح مأموراً من قبل العبيد ، فما أشدها قسوة !!

إن صدق المعتمد في هذا الشعر عندما يرى بناته بهذه الصورة المفجعة ، ويرثي لهن مقتل أبنائه الذين هم إخوانهن ، مضاعفة للحزن ، وتعميقاً للهم والأسى ، كما يوردهن في شكوى القيد والأسر، وهذا لأن جرحه في أميرات الأمس استعصى على الشفاء بعد أن حدث لهن ما حدث.

وتذكر بعض الكتب أن زوجة المعتمد بن عباد الحبيبة إلى قلبه " اعتماد الرميكية " لها مع هذه المناسبة حديث غريب وعجيب قبل النكبة ، ونذكره هنا بإيجاز ، فقد رأت هذه الجارية يوماً نساء البادية يبعن اللبن ، أو يجلبن الماء في القرب وهن كاشفات عن سوقهن ، حافيات الأقدام في الطين .. فقالت للمعتمد اشتهى أن أفعل وجواريَّ مثل هؤلاء النسوة .. فأمر المعتمد بالمسك والكافور وماء الورد، وخلط الجميع حتى صار طيباً في القصر، وجعل لهن قرباً ، وحبالاً من إبريسم، وخرجت اعتماد وجواريها يخضن في هذا الطين المصنوع من المسك والكافور .. " (٥٠) .

وهذا في اعتقادي مثل من أمثلة عبث القصور، وكأن القدر يسخر من هذا العبث الذي جاوز الحد ، فرد زوجة المعتمد وبناته إلى الطين الحقيقي، طين الريفيات حاملات القرب، غير أنه

---

(٤٩) راجع في ذلك : نهاية الأرب في فنون الأدب ــ النويري ، تحقيق د . أحمد كمال زكي ، د . محمد مصطفى زيادة ج ٢٣ ص ٤٦٢ ، وراجع : ابن العماد الأصفهاني في شذرات الذهب ج ٣ ، ص ٤٥ .

(٥٠) راجع الأدب العربي في بلاد المغرب والأندلس د. عمر فروخ ج ٤ ص ٧٢ ، وقراءة في تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤١ ، محاضرات ألقيت على طلاب الفرقة الثالثة ، ص ٤١ .
وكذلك عصر الدول والإمارات " الأندلس " د . شوقي ضيف ، ص ٤٩ ، ط / دار المعارف بمصر .

طين الذل والهوان والأسر، بدلاً من المسك والكافور والعنبر، طين بلله المعتمد ــ كما نرى في الأبيات السابقة ــ بدمعه يوم زرنه في سجنه وتذكر هذا الموقف عندما نظر إلى بناته فرآهن حافيات الأقدام ، كسيرات ذليلات ، وجاء منها أيضاً :

برزن نحوك للتسليم خاشعة ∴ أبصارهن حسيرات مكاسيرا

وانظر إلى هذا البيت الذي يترجم صدقه الواقعي والنفسي في القصيدة أيضاً :

أفطرت في العيد لا عادت إساءته ∴ وكان قطرك للأكباد تقطيرا [٥١]

وهذا الصدق الواضح لا يحتاج إلى تعليق أو شرح ، والناظر يامعان في مثل هذه الأبيات يكاد قلبه ينفطر من شدة الأسى والحزن على ما حل بالمسلمين ، وما ضاع منهم ببلاد الأندلس بسبب هذا العبث وعدم الاكتراث ، لكن لله الأمر من قبل ومن بعد .

٣ ــ ونختم حديث المعتمد مع أسرته ، بهذه المناجاة التي وجهها إلى أولاده الذكور، هؤلاء الأمراء منهم من كان حاكماً ، وجار عليه الزمن كأبيه ، ومنهم من قتل بين يديه ، ولم يستطع أن يرد عنه هذا القدر ومن ثم سيكون هذا الختام تحت عنوان : مع رثاء أولاده .

ومن يقرأ تاريخ المعتمد يجد أن له الكثير من الأولاد ، وقد وزع بعضهم على أقاليم مملكته يحكمون باسمه ، فلما ملكه هوجموا ، وقتل منهم من قتل ، فرثاهم بدمع غاية في الجودة والألم ، ومن هذا الرثاء ما جاء في ابنه الفتح ويزيد ، بعد أن قتلا صبراً بين يديه قال :

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصـــبر
سأبكي وأبكي ما تطاول من عمـــــري

هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقـــــه
يزيد فهل عند الكواكب من خـــــبر ؟

ترى زهرها في مأتم كل ليـــــــلة

(٥١) المعتمد بن عباد الأمير المرزأ ، عبد الرحمن عزام باشا ، ط / دار المعارف مصر .

تخمسن لهفاً وسطه صفحة البـــــدر

ينحن عـــــلى نجمين أثكلت ذا وذا
وأصبر ما للقلب في الصـــبر من عـــذر

مدى الدهر ، فليبك الغمام مصـــــابه
بصنويه يعذر في البكاء مدى الدهـــــر

بعين سحاب وأكف قطر دمعهـــــا
على كل قبر حل فيه أخو القـــــدر

وبرق ذكي النار حتى كأنمـــــــا
يسعر مما في فؤادي من الجمـــــــر

أفتح ، لقد فتحت لي باب رحمـــــة
كما بيزيد : الله زاد في أجـــــــري

فلو عدتما لاخترتما العود في الشـرى
إذا أنتما أبصرتماني في الأســـــر[٥٢]

ويبدو صدق المعتمد واضحاً ومؤثراً ، عندما ركن إلى العلا وحلق في آفاق السماء ، ليصور لنا خياله هذه الكارثة التي تجل وتكبر، عل طاقة البشر، ـــ خاصة إذا كانت من قبل الوالد ، وقد كان ملكاً .. " إنه يبكي فلذات كبده ، إنه يحيل العالم العلوي من نجوم وكواكب وسحب وقبل كل ذلك السماء إلى موكب جنائزي ، يبكي الكوكبين اللذين سقطا في الأرض وهما " " الفتح ويزيد " بحرقة وصدق ، حتى البرق الأحمر يستمد ناره من قلب الأب الكسير الملتاع ، ومن

(٥٢) راجع هذه الأبيات في : خريدة القصر ـــ العماد الأصفهاني ج ١١ ص ١٥١ ، وراجع القصيدة في دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ د . الطاهر أحمد مكي ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ط / دار المعارف ـــ مصر .

صدره المحترق ، وينتهي الموكب هذا باحتساب الفقيدين عند ربهما طمعاً في ثوابه تعالى ومغفرته .

وكم كان المعتمد رائعاً في أسلوبه وطريقة تعبيره ، والأدوات التي استخدمها ليرسم لنا هذه الصورة وينقل لنا هذه المشاعر الجياشة ، حتى جعل المتلقي يتأثر بشدة ويعيش في هذا الجو الجنائزي الحزين .

وقد نقلت إلينا طرق هذا التعبير بشكل جيد ملامح الحزن والثكل ، فالصبر المنقى يتكرر كثيراً في هذه الأبيات ليشير إلى الجزع المفرط الذي أصاب المعتمد في أولاده ، أما البكاء والثكل والمأتم والقبر، فهي تكشف تفشي الحزن وعموم الأسى على الفقيدين في السماء والأرض .

أما خيال المعتمد هنا فقد كان خصباً ، ومعيناً طيباً ، استمدت منه تجربته كثيراً من النجاح والتوفيق ، ومن الأمثلة على ذلك : هذه الاستعارات " هوى الكوكبان " ترى زهرها في مأتم كل ليلة ، ينحن على نجمين ، فليبك الغمام مصابه ، وكل هذه الصور والاستعارات ترفع موكب الفقيدين ، وتسمو بمكانتهما إلى الآفاق والسماوات العلا .

ومن يمعن النظر في هذه الأبيات يجد الشاعر يريد من عينه ومن عيون الآخرين البكاء المستمر الذي لا يتوقف ، وقد ساق في تجربته ما يعين على استمرارية هذا البكاء ودوامه ، مثل قوله : " سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري " " مدى الدهر فليبك الغمام " و " يعذر في البكاء مدى الدهر " .. وهل يوفي هذا حق الأميرين القتيلين في عمر الزهور ؟ وأيضاً ـــ طريقة القتل التي شاهدها الوالد ؟ ! ومن ثم فقد تضاعف حزنه هو وأسرته عليهما ، بل وتمنى الموت ، لكن تقوى الله وخشيته ، والتسليم لقضائه وقدره والطمع في الأجر والثواب من عنده كل هذه الأشياء جعلت المعتمد يصبر ، وهنا نجد في هذا الاتجاه أعظم أبيات الرثاء ، لأنه ينقل حقيقة وضعه وموقفه عند نزول المصائب والشدائد العاتية به ، فهو بين البكاء الحزين الغزير ، وبين مراعاة ما يرضي الله ـــ تعالى ـــ أو بين الرحمة والاعتبار، وهذا موقف إيماني تمثله المعتمد في هذه الكارثة ، ولنعد عليك هذا البيت ، ونترك لك الوقوف على معانيه :

" أفتح لقد فتحت لي باب رحمة .·. كما بيزيد : الله قد زاد في أجري "

وبعد أن يحتسب هذه المصيبة ، ويقول : إن قتل ابنه الفتح ، فتح له باب رحمة من الله ، وبيزيد ، يزيد أجره ، يقول في هذا ، ويذكر أثر الصدمة، فهو بشر له طاقة واسمعه عندما يتوجع :

أفتح لقد فتحت لي أبواب رحمة ∴ كما بيزيد : الله قد زاد في أجري
توليتمـــا والسن بعد صغيرة ∴ ولم تلبث الأيام أن صغرت قدري
توليتما حـــين انتهت بكما العلا ∴ إلى غاية ، كـــل إلى غاية يجري
يعيد على سمعي الحديد نشيده ∴ ثقيلاً فتبكي العين بالحـــس والنقر
معي الأخوات الهالكات عيكما ∴ وأمكمـــا الثكـــلا المضرمـــة الصدر
فتبكي بدمع ليس للقطر مثله ∴ وتزجرها التقوى فتصغى إلى الزجر
أبا خالد أورثتني الحزن خالداً ∴ أبا النصر مذ ودعت ودعني نصري
وقبلكما قد أودع القلب حسرة ∴ تجدد طول الدهر، ثكل أبي عمـــرو[٥٣]

إن قلبه الحزين يشتعل ناراً لفقد أولاده ، وتحقير شأنه وتصغير قدره ، بعد أن كان عظيم الشأن عالي القدر في عيون الآخرين ، والاستعارة في قوله " ولم تلبث الأيام أن صفرت قدري ترينا حجم الأحزان المتراكمة في صدر المعتمد طبقات بعضها فوق بعض ، ومما يضاعف هذا الحزن والألم : الأم وبناتها، فإنه يوشك أن يقتلهن أو يكاد يميتهن، لولا تقوى الله ــ تعالى ــ وخشيته التي كانت لهن عوناً على تحمل هذه الفادحة ، وانظر إلى قوله : " معي الأخوات الهالكات " ، " والثكلى المضرمة " .

إن المعتمد عندما نظر بعد المعركة ، وجد نفسه خسر كل شيء إلا الشرف ، تطلع فإذا ابنه سراج الدولة قتيل ابن عكاشة في قرطبة ، وأبو خالد يزيد الملقب بالراضي قتله قرور اللمتوني عذراً برندة ، وأبو نصر الفتح الملقب بالمأمون قتيل في قرطبة ، صور لنا حاله تكبله القيود وذل الأسر، وكذلك حال زوجه اعتماد الرميكية يغلبها الحزن وتزجرها التقوى وتذللها الذكرى وتفرع للبكاء وتصبر أحياناً وهي مضيعة[٥٤] .

الاتجاه الثالث : مع الشعراء :

ومن ملامح هذا الصدق الرائع ما يتمثل في حديثه مع الشعراء الذين عاصروه ، أو كانت لهم صلة به ، وما أكثرهم ، فهو شاعر ــ كما سبق أن أشرت ، محباً للشعراء ، ولقد اجتمع ببابه

---

(٥٣) راجع : ـــ أندلسية في الأدب والتاريخ د. الطاهر أحمد مكي ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
(٥٤) السابق نفسه .

من الشعراء وأمراء الكلام ما لم يجتمع لأحد إلا بباب الرشيد . وقد كان منهم ابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار وابن وهبون وغيرهم ، وقد كان شعره كأنه الحلل المنشرة ، وكان أندى ملوك أهل الأندلس راحة وأرحبهم ساحة ، حضرته ملتقى الرجال وموسم الشعراء وأفاضل الأدباء [٥٥] .

فماذا قال المعتمد للشعراء الذين كانوا يفدون للسلام عليه ؟ وكيف تذكر أيامه الخوالي معهم ؟ هذا ما نقف عليه في هذه العجالة .

ولقد كانت رؤيته للشعراء تعيد إليه مواسم الجود وذكريات العطاء والعظمة ، حين كانوا يفدون عليه آملين في عطاياه ، وكانوا يعودون بأثمن العطايا والهبات ، وقد كان المعتمد ــ كما سبق أن ذكرنا ــ مضرب الأمثال في ذلك ، فكان يحز في نفسه عجزه وفقر وقلة العطاء وهو في هذا الضيق، لأنه تعود على البذل والسخاء ، وأول ما نلتقي به هنا من حديث المعتمد مع الشعراء ، حديثه مع شاعره الأثير لديه والمفضل عنده ، وهو ابن اللبانة ، وله معه مواقف منها عندما جاء هذا الشاعر الداني منه والقريب إلى قلبه أبو بكر بن اللبانة ليزروه في أغمات وكانت هذه الزيارة لمسة وفاء ، فأعطاه المعتمد اليسير مما في يديه ، لأنه صار معدماً ، بعد أن جرده يوسف بن تاشفين من ماله ، فقد قالوا : " إنه أخذ كل شيء يملكه المعتمد ، وترك أولاده فقراء .. " [٥٦] حتى الذهب والحلي الخاص ببناته وزوجه .. وهنا يخاطب المعتمد شاعره ابن اللبانة ــ بعد أن أعطاه هذا القليل :

إليك النـــذر من كف الأسير ∴ فإن تقبل تكن عين الشـــكور

ولا تعجب لخطب غض منه ∴ أليس الخسف ملتزم البدور ؟

ورجٍّ بجبره عقبـــى نداه ∴ فكم جـــبرت يداه من كسير

وكم أعلت علاه من حضيض ∴ وكم حطـــت ظبـــاه من أمير

وكل أحظى رضاه من حظى ∴ وكم شهـــرت علاه من شهير

(٥٥) وفيات الأعيان ــ ابن خلكان ، ج ٢ ص ٢٩ .

(٥٦) الحافظ الذهبي في العبر : تحقيق فؤاد سيد ج ٣ ص ٣٠٤ ، ط / الكويت ، سنة ١٩٩١ م .

وكم من منبر حنـــت إليـــه ∴ أعالي مرتقاه ، ومن سرير[٥٧]

والاعتذار هنا واضح من قبل المعتمد لشاعره ابن اللبانة ، حياء من قلة العطاء ، وهذا أمر غريب ، لأن الرجل لا يلام على شيء لا يملكه ، والأغرب منه : هذا الرجاء الذي صدر من المعتمد لشاعره ، وكذلك الأمل المنشود في تقبل هذا العطاء القليل في نظر المعتمد الأسير ، ثم أخذ يسترجع المعتمد بعض الذكريات التي جرته إلى إظهار بعض ما كان له من فضل وأبهة ، فعدد جانباً منها وهو في ذلك صادق فنياً وواقعياً ، ويختم هذه التجربة وتلك الأبيات ــ كعادته ــ بالتسليم لحكمة الله وقدره ، وسنن الكون في تعاقب الخير والشر ، وبذلك تكون هذه الأبيات تجربة استرجاع مليئة بالتداعيات ، وقد وظف فيها المعتمد الخطاب الشعري توظيفاً ناجحاً ، كشف عن صدقه وشاعريته الجيدة ، وقد لعب الزمن دوراً حيوياً في هذه التجربة الحية ، لأنه يريد أن يؤكد هذا الصدق للمتلقي ، ولذلك ساد الفعل الماضي مثل : " جبرت ، أعلت : حطت ــ أحظى ، شهرت ، جنت ، وهذه المفاعلة " تنافست تراجعت ، حتى يؤكد بجلاء أنه كان مصدر النبل والخير ، فكيف يجري له ما جرى ؟ !!

وبالنظر إلى أسلوبه وتعبيراته يستوقفنا هذا التشبيه ــ مثلاً ــ الجيد الذي يبين صدقه وعظمته ورفعته في وقت واحد " أليس الخسف ملتزم البدور ؟ " وليزيد هذا الصدق وتلك الرفعة والعظمة ، يلجأ إلى حرف الجر الزائد ، فيكرره ست مرات ، مضيفاً إلى تأكيداته واحداً من أقوى هذه الوسائل ليدع المتلقي مكبراً لهذا الصدق وتلك العظمة ، والتي زال الخير بزوالها ، حتى لم نعد نراها في سواه ، لكنه قدره المحتوم ، ثم تأتي خاتمة القصيدة مقنعة للنفس فتستقر وتتمكن ، وتمد للمتلقي من الحزن مداً على أيام بني عباد الباقية في النفوس :

فقد نظرت إليه عيون نحس ∴ مضت منه بمعدوم النظير

نحوس كن في عقبى سعود ∴ كذاك تدور أقدار القدير[٥٨]

حتى قال له ابن اللبانة :

---

(٥٧) راجع الخريدة ، للعماد الأصفهاني ج ١١ ص ١٥٣ ، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب ــ المراكشي ، ص ١١٠ .

(٥٨) راجع العماد الأصفهاني في الخريدة ج ١١ ص ١٥٣ ، مرجع سابق .

لم تمت إنما المكارم ماتت ∴ لا سقى الله بعدك الأرض قطرا [٥٩]

حاش لله أن أحيج كريماً ∴ يتشكى فقراً وكم سدَّ فقرا

وكفاني كلامك الرطب نيلاً ∴ كيف ألقي دراً وأطلب تبرا

وابن اللبانة هو الشاعر المقرب إلى المعتمد ، وهو صاحب الرثاء الصادق والمؤثر والفياض في دولة بني عباد ، وصاحب القصيدة المشهورة التي أولها :

تبكي السماء بمزن رائح غادي ∴ على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التي هدت قواعدها ∴ وكانت الأرض منهم ذات أوتاد [٦٠]

وقد بكى دولة العبابدة في شعر صادق طافح بالأسى ، عدد فيه مآثرهم وما صاروا إليه ، في عبارة رقيقة وتصوير دقيق ، ليس هنا موضع ذكره أو موطن دراسته ... " [٦١] .

أما الثاني من الشعراء الذين تحدث معهم بصدق وصور لهم حاله فهو الشاعر ابن حمديس الصقلي ، وقد جاء الشاعر إلى أغمات زائراً للمعتمد بن عباد ، فصرفه الخدم وعلم المعتمد ، فكتب إليه ليوضح له الأمر ، وأنه كان لا يعرف وليس لديه خبر بهذه الزيارة ، معتذراً بصدق ، قائلاً له:

حجبت فلا والله ما ذاك عن أمري

فاصغ فدتك النفس سمعاً إلى عذري

فما صار إخلال المكارم لي هوى

ولا دار إخجال لمثلك في صدري

---

(٥٩) نهاية الأرب ــ النويري ج ٢٣ ص ٤٦٢ ، مرجع سابق .

(٦٠) راجع : الأبيات في دراسات أندلسية ، د . الطاهر أحمد مكي ص ٢٤٢ ، وعصر الدول ، شوقي ضيف ، سنة ٣٤٢ .

(٦١) راجع في ترجمة ابن اللبانة وشعره : الذخيرة ج ٣ ص ٦٦٦ ، والقلائد ص ٢٤٥ ، الخريدة ج ٢ ص ١٠٧ ، الوافي بالوفيات ج ٤ ص ٢٩٧ ، والمقرب لابن سعيد ج ٢ ص ٤٠٩ ، ت : شوقي ضيف ، المعجب للمراكش ص ١٤٧ ، ت : محمد سعيد العريان .

ولكنه لما أحـــالت محـــاسني
يد الدهر شلت عنك دأباً يد الدهـــر

عدمت من الخدام كل مهـــذب
أشير إليه بالخفى من الأمـــر

ولـــم يبق إلا كل أدكن ألـــكن
فلا آذن في الإذن يبرأ من عـــر

حمار إذا يمشي ونسر محـــلق
إذا طار بعداً للحمـــار وللنسـر

وليس بمحتاج أتـــانا حمارهـم
ولا نسرهم مما يحن إلى وكـــر (٦٢)

إن الصدق الفني والواقعي لم يفارق المعتمد في هذا الاعتذار الصادر منه إلى ابن حمديس ، والعجيب أن المعتمد لم يكن سبباً في هذا المنع الذي جاء من قبل الخدم والعبيد الذين نفى عنهم المعتمد الفهم والفطانة في تصرفاتهم ، وتفيض الأبيات بالتوفيق في طرق الأداء ، التي كثر فيها التعبير الكنائي، من مثل قوله : " أشير إليه بالخفى من الأمر"، " فلا آذن في الإذن يبرأ من عر " والكنايتان تشيران إلى نوعية الخدام : فخدام الملوك أذكياء يفهمون الأوامر بإشارة خفية ، أما خدام اليوم ـ وأنا رهين السجن ـ فأغنياء حمقى ، يقصرون في أقدار الناس دون وعي ، أو اكتراث .

وأما قوله " محاسني " والتي جاءت على صيغة منتهى الجموع فهي تكشف عن كثرة هذه المحاس وشهرتها وقوله "وليس بمحتاج أتانا حمارهم" " ولا نسرهم ممن يحن إلى وكر" ففي التعبيرين المجازيين جدة وبراعة في كشف الذوق العالي ورفعة المعتمد عن الإتيان بألفاظ قبيحة ينكرها الطبع السليم ، وفي قصيدة أخرى بعثها المعتمد إلى ابن حمديس من سجن أغمات، يقول فيها :

(٦٢) راجع : المعتمد في ديوانه ص ١١٤، وراجع عبد الجبار بن حمديس في الديوان ص ٢٣٦ .

غريب بأرض المغربين أسـير ∴ سبيكي عليـه منبر وسرير[٦٣]
سيبكيه في زاهيه والزاهر الندى ∴ وطلابـه والعـرف ثم نكير
مضى زمن والملك مستأنس به ∴ وأصبح عنـه اليوم وهو نفور
أذل بني ماء السـماء زمانهم ∴ وذل بني مـاء السـماء كثير
فما ماؤها إلا بكاء عليهـم ∴ يفيض على الأكباد منه بحـور
فيا ليت شعري هل أبيتن ليـلة ∴ أمامي وخلفي روضـة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العـلا ∴ تغني قيـان أو تـرن طيـور
بزاهرها السامي الذراجاده الحيا ∴ تشير الثريـا نحونـا ونشـير
تراه عسيراً أم يسـيراً منا له ∴ ألا كل ما شـاء الإله يسير[٦٤]

وإذا نظرنا إلى هذه الأبيات ، وبحثنا عن جانب الصدق فيها ، وجدناه ظاهراً جلياً من خلال هذا الأثر النفسي الذي تركه في المتلقي ، إن ما تحمله كلمة " غريب " ، وليته كان طليقاً فقد أضاف إلى هذه الغربة الأسر والقيود والأغلال ، وليت كل هذا ، كان لرجل عادي لكنه للمعتمد بن عباد !!

وفي طريقة التعبير عن مثل هذا الصدق ، وتلك العواطف ، يسخر لنا مجموعة من الطرق تجيد توصيل عالمه إلينا ، بل يجعلنا ندخل إلى أعماق هذا العالم ونعيش فيه ، فهو يكشف عن حب الرعية له ، وحزنهم الشديد على هذه النكبة التي حلت به ، من خلال البكاء عليه ، والأعجب من ذلك أن البكاء يصدر من الجماد مثل : المنابر ، والقصور ، والأسرة ، وكذلك سيبكيه الجود ، والمعدمون وطلاب الحاجة ، وغيرهم .

لقد ثقل على الأندلس وأحزنها زوال ملكه " أذل بني ماء السماء زمانهم " وذل بني ماء السماء كثير " إنه ينقل مشاعره بالصدمة التي لم تكن في حساب أحد أن يذل " بنو ماء السماء " فهذا بعيد لا يصدق ، ولا يمكن أن يحدث ، فقد قال ابن صمادح لوالده : ما دام المعتمد بأشبيلية ، فلا نبالي بالمرابطين ، فلما سمع ما جرى للمعتمد ، مات في تلك الأيام ، وهي من أجمل

(٦٣) راجع : نهاية الأرب ــ النويري ج ٢٣ ص ٤٦٣ ، وفيه " يفيض على الآفاق منه بحور " .
(٦٤) عصر الدول والإمارات ، الأندلس د . شوقي ضيف ص ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ط / دار المعارف مصر .

العبارات الكنائية المستحدثة التي تبرهن على صدق المعتمد في كل ما قال عن نفسه ، أو ما قاله عنه الآخرون ، وفي آخر هذه الأبيات يحلم المعتمد كغيره من البشر الذين سلبوا ما كان بأيديهم ، ويتمنى أن يعيش ليلة واحدة مثل ما كان من الليالي الخوالي .

ويرسم حلمه الوردي ــ هذا ــ في عودة عرشه وسلطانه ، يجنح إلى الخيال الجزئي المكون لصورة العظمة والسلطان بنفوس الناس في عبارات مثل" تشير الثريا نحونا " وبمنبته الزيتون موروثة العلا " و" يلحظنا الزاهي " .. فالأحلام سهلة ويستطيع كل إنسان أن يحلم ويتمنى ، وهي يسيرة هينة ، متى شاء الله القادر ــ سبحانه ــ تحقيقها ، وهو يسأل ويجيب المؤمن الذي لا يقنط مهما كان هذا الأمر " تراه عسيراً أم يسيراً ؟ " ألا كل ما شاء الإله ينسير " !!

أما الشاعر الثالث الذي كان للمعتمد بن عباد معه حديث ، فهو " ابن الزنجاري " : وحتى لا نطيل أكثر ، نقول في بداية الحديث أن ابن الزنجاري لم يطلب من المعتمد مالاً أو ذهباً ، وإنما زاره كغيره من الشعراء الذين كان يعطيهم المعتمد أيام المجد والثراء والملك ، وإنما طلب منه أن يسمعه شيئاً من شعره ، وهذا من قبيل الألفة والمحبة والتقدير من قبل ابن الزنجاري ، لشاعره وملكه سابقاً المعتمد بن عباد ، لكن المعتمد الشاعر كان ذا حس مرهف وفهم ثاقب ، ويقظة ، مما جعل كل هذا يفرض نفسه على الموقف ، قبل أن ينطق الرجل ، فماذا قال المعتمد ؟

لو أستطيع على التزويد بالذهـــب
فعلت لكن عداني طارق النـــــوب

أصبحت صفراً يديّ مما أجود بـــه
ما أعجب الحادث المقدور في رجـــب

ذل وفقر أزالا عزة وغنـــــــى
نعمي الليالي من البـــلوى على كثـــب

والملك يحرسه في ظل واهبـــــه
غلب من العجم أو شم من العـــــرب

فحين شاء الذي آتاه يترعـــــــه
لم يجد شيئاً قراع السمر والقضـــب (٦٥)

إنه اعتذار صادق صدر من ملك تحول عنه طالعه فحرمه الجود ، وهنا يتملكه العجب والدهشة لكنه يسلم أمره لله ــ تعالى ــ فهو الذي يؤتي الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، والمعتمد بقضاء الله راضٍ ، وهنا يبرهن على صدقه ، لأنه لا يملك من الأمر شيئاً .

ودليل صدقه أيضاً : أنه أتى هنا في البداية " بلو " التي تجعل الجود بعيداً ، بعد هذه النكبة ، وهو في هذه الحالة لا يملك إلا الدهشة مما حدث له في شهر رجب من نزع ملكه وماله " ما أعجب الحادث المقدور في رجب " ويضيء عمومية هذا التعبير : " بالفقر والغنى ، انقلبا إلى النقيض ، وذل وفقر أزالا عزة وغنى " أما تداول الأيام فقد اخترع لها تعبيراً طريفاً ، وكان موفقاً فيه حين قال : " نعمى الليالي من البلوى على كثب " ليشعرنا بحقيقة ثابتة هي أن الملك لا يدوم والنعيم في الدنيا لا يبقى طالما جاورته البلوى ، واقتربت منه ، وهذا ما جاء في قوله تعالى : " ولنبلونكم حتى نعلم .. " الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ " (٦٦) .

ومن براعته الفنية التي أثبت بها صدقه ، أنه مال إلى المفارقة الناجمة عن مثل هذه المطابقة بين " نعمى ــ بلوى ، عجم ــ عرب ، ذل وعزة ، فقر وغنى " ليؤكد لنا أن الكل إلى زوال ، والدنيا إلى فناء ، وهكذا استوعب المتلقي رسالة المعتمد ، ووقف على صدقه في كل ما نظم ، وما قال من شعر .

الاتجاه الرابع والأخير : " حديثه مع أناس صحبهم "

وهنا تظهر حقيقة الصدق في شعر المعتمد ، هذا الحديث الذي دار مع أناس صحبهم ، وكانت تربطهم به صلة أيام الملك ، ثم بعد النكبة ، فما حقيقة هذا الشعر ؟ !

والحقيقة أن هذه الصحبة ، وتلك المرافقة من قبل هؤلاء للمعتمد فجرت له تداعيات هذه النكبة وخاصة من قبل منجمه أبي بكر الخولاني ، وكذلك الطبيب الوفي ، والوزير أبي العلاء بن

---

(٦٥) راجع في ذلك : الذخيرة لابن بسام ، القسم الثاني ج ١ ص ٦٣ .

(٦٦) سورة " محمد " الآية رقم (٣١) ، وراجع الآية التي في سورة البقرة : " وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ..... " الآية رقم (١٥٥ ، ١٥٦)

زهر، وفي السطور التالية نتناول طرفاً من هذا الحديث ، ونبدأ بأبي بكر الخولاني ، وكان هذا الرجل مع مجموعة من المعتقلين ثم أفرج عنهم من سجن أغمات ، بعد أن ودعوا المعتمد وتركوه في غياهب هذا السجن ، وقد تراءى الخولاني للمعتمد مع صدمته من غدر المرابطين ، ونذر ضياع ملكه ، فرآه في إحدى حلقات النكبة ، وصورة الزيف والتضليل ، الذي استنام لها المعتمد يوماً من الأيام، ولم يصدقه ما حدث لأن المنجم كان قد تنبأ ــ كذباً ــ بالنصر للمعتمد وبقاء ملكه وعزه ، ولكن جاءت الأقدار بعكس ذلك تماماً فقال المعتمد :

أرمدت أم بنجومـــك الرمد ∴ قد عاد ضـــداً كل ما تعد
هل في حســـابك ما تؤمله ∴ أم قد تصرم عنـــدك الأمد
قد كنت تهمس إذ تخاطبني ∴ وتخط كرهاً إن عصتك يد
فالآن لا عـــين ولا أثر ∴ أتراك غيب شخصك البلد ؟
وتراك بالعذراء في عرس ∴ أم إذ كذبت سطا بك الأسد ؟

وكما نرى يدور صدق المعتمد في هذه القصيدة ، وتلك التجربة الشعرية، حول المنجم الكاذب الذي كان يختلق الأكاذيب لمصلحته الشخصية، وهنا ينظر إليه المعتمد باعتباره إحدى حلقات النكبة بسبب هذا الكذب وذلك الزيف ، إنها المفاجأة التي أذهلت الجميع حتى المنجم وتنجيمه ، فاختل توازن الملك ، إن المعتمد يرى صورة المنجم من ملايين الصور التي تتوالى فتحرك شريط النكبة ، وترسم مأساة الزوال لتظهر حتمية التبدل ، وحقيقة القدر ، ولذلك قال :

الملك لا يبقى على أحد ∴ والموت لا يبقى له أحد

إنها تجربة حادة الإيلام ، امتزجت بها السخرية من هذا التبدل ، والحزن على ما وقع ، إنه صدق المعتمد الذي عهدناه فيه ، ولذلك اتخذ من المنجم قناعاً لينفذ من خلاله إلى رسم وتصوير هذا الزلزال الذي عصف بكل شيء فهي حتمية التبدل والابتلاء ، وتوقظ فينا تجربة موازية ، وهي تجربة أبي تمام ، مع المعتصم العباسي ، فقد اتحدت التجربتان في السخرية من النجميم ، وخداع المنجمين ، ودجلهم ، وإتيان الأقدار بغير ما زعموا ، والاستهزاء بكلامهم ومصطلحاتهم .

لكن أبا تمام عرض للمنجمين في ضوء جسارة المعتصم ، وتحديه لتخرصاتهم المبهمة ، وانتصاره الحاسم على الروم ، وقهره لهم وتنكيله بأعداء الإسلام والعروبة ، في قصيدته الشهيرة "

السيف أصدق أنباء من الكتب .. " [٦٧] .

أما المعتمد عرض للمنجم باعتباره حلقة في سلسلة مأساته ونكبته ، وفرق كبير بين الحديثين (عن المعتصم الذي يمثله أبو تمام ، وبين المعتمد نفسه صاحب الملك الزائل ، وكأن المعتمد يحمل المنجم هذا جانباً من المسئولية ، وارجع إلى قول المعتمد عن هذا المنجم " أرمدت ؟ أم بنجومك الرمد ؟ ....) البيت .

وقد تحدث أبو تمام عن ظاهرة التنجيم ، في ضوء عقيدته وثقافته ومهنته كشاعر ، بينما تحدث المعتمد عن منجم خاص به ، يحمله طرفاً من المسئولية فيما حدث له كملك " والشاعر " ابن المنجم ، كفرد من أفراد الرعية ، ثم وصفه بالجحود وعدم الوفاء لمليكه ، وولى نعمته ، وارجع إلى ما قاله المعتمد في هذا الصدد :

قد كنت تهمس إذ تخاطبني ∴ وتخط كرهاً إن عصتك يد
فالآن لا عين ولا أثـــــر ∴ أتراك غيب شخصك البلد[٦٨]

وهنا يتضح صدق المعتمد ، عندما توجه إلى المنجم بهذا التذكير ، وبيان مكانته عنده أيام ملكه قبل المحنة ، وبعدها كاشفاً له سوء معدته ، وعدم صدقه في هذه الصلة ، وتلك الصداقة ، لأنها لم تكن خالصة أو حقيقية ، ولذلك ظهر زيفها ، وعدم استمراريتها .

ومن اللافت للنظر استكثار المعتمد من أدوات الاستفهام التوبيخي الإنكاري ، وهذا ما يلائم اهتزاز ثقته في بعض الناس الذين لم يكونوا صادقين في صحبته ، بعد أن أتى منهم بعض الأشياء التي تدل على خستهم وندالتهم فحدث له ما حدث دون تفسير ، فلجأ المعتمد إلى استجلاء الغموض والإبهام فلم يجد أكثر من أسلوب الاستفهام ملائمة لنقل عالمه النفسي وتوضيح صدقه الذي يجعل المتلقي يتأثر به وينفعل بموقفه فاستكثر منه ، ومن صوره : استخدامه لهمزة الاستفهام ، أو يستخدم " أم " أو " هل " ثم " أم " ثم الفعل المسبوق بالهمزة " أتراك " ثم الفعل مجرداً " تراك ـــ بالعذراء في عرس ، ثم أم : " أم إذ كذبت ـــ ثم فرغ الاستفهام التوبيخي المحتشد ـــ في خمسة أبيات شحنة الغموض التي أحاطت به ، حيث استخدم أدوات الاستفهام أكثر من مرة فملئت

([٦٧]) راجع القصيدة في ديوان أبي تمام ص .

([٦٨]) الأبيات مرت .

الأبيات بالحيوية والدهشة مما صار إليه أمره . وقد أرانا هذا التكثيف المؤازر للتجربة المدى الذي وصل إليه المعتمد من التوتر والقلق النفسي، وحساسية لغته الفنية ، ودقة استعمالاته، وتوظيفه الناجح لمثل هذا الأسلوب الذي رآه كافياً لإزاحة هذا القلق ، ورأى أن هناك أمراً واحداً هو الذي يستطيع أن يفسر لنا هذا الأمر ، ويوضح هذا الصدق ألا وهو " حتمية التبدل ، واستحالة الثبات والخلود والبقاء :

الملك لا يبقى على أحد ∴ والموت لا يبقى له أحد

وبهذا يكشف المعتمد معتقده في زيف الأيام وكذب زخرفها ، إذ ليس المنجم وحده سبباً في هذه المحنة وتلك النكبة بل كل ما حوله من الخائنين والجبناء ، لا أمان لهم ، ولا يمكن الاطمئنان إليهم ، ومنهم المنجم هذا .

ومن حديثه مع الآخرين والذين صحبهم ، هذه الأبيات التي قالها ، عندما تعرض له أهل الكدية وهو في الحبس وطلبوا منه بعض الهبات كما عودهم ، فقال :

سألوا اليسير من الأسير وإنه ∴ بسؤالهـــــم لأحق منهم فأعجب

لولا الحياء وعزة لخميـــــــة ∴ طي الحشا لحكاهم في المطلب[٦٩]

إلى آخر هذه الأبيات التي تدل على صدق المعتمد في شعره وفعله ، وانظر إلى التعبير " اليسير من الأسير " .

ومن حديثه مع رفاقه الذين كانوا معه في سجن أغمات ، ولكن شاء القدر أن يفرج عنهم ويخرجوا من السجن ، ليصبح المعتمد فيه وحيداً ، يشكو من ألم الغربة والفراق ، والذل والهوان ، فكان من ملامح صدقه أنه لم يحسدهم ، ويحقد عليهم ، لكنه غبطهم وفرح لهم ، وطلب منهم أن يدعون له بالإفراج عنه ، وأن يخرج من هذا الأسر وذلك السجن فقال وهو يودعهم وكانوا من أهل فاس :

هبوا دعوة يا آل فاس لمبتـــــلى
بما منه قد عافاكم الصمد الفـــــرد

(٦٩) راجع نهاية الأرب للنويري ج ٢٣ ص ٤٦٢ مرجع سابق .

تخلصتم من سجن أغمات والتوت
عليَّ قيود لم يحن فكها بعـــــــد

فهنئتم النعمى ودامت لكلـــــــكم
سعادته ، إن كان قد خانني السعـــد

خرجتم جماعات وخلفت واحـــــداً
ولله في أمري وأمـــــركم الحمد (٧٠)

لقد ودعه رفقاء السجن وأصحابه الذين كانت له معهم ذكريات جميلة، فكيف يتسلى بعدهم ؟ وقد أصبح وحيداً ، وهنا يتجلى صدق المعتمد في هذه المشاعر الفياضة التي نقل إلينا عالمه النفسي من خلالها ، وهذه اللحظة الحاسمة ، إنها لحظة الوداع المليئة بالوحشة والألم ، وهنا تتجلى خواطره الرفيعة وفكره السامي ، وصفاته الخالية من شوائب الحسد لأصحابه ، أو التدني إلى الوشاية بهم ليظلوا معه ويطلب منهم شيئاً واحداً هو الدعاء الصادق له بأن يفك الله أسره ، ويعافيه من هذا البلاء ، ويسند المعتمد معافاة هؤلاء من السجن إلى الله ــ تعالى ــ قائلاً " بما منه قد عافاكم الفرد الصمد " واختيار الصمد هنا والفرد اختيار دقيق فمعناه المقصود وحده بالحاجات ، فليس لنكبته من دون الله كاشفة ، وكما طلب منهم الدعاء ، دعا لهم المعتمد دعاء نابعاً من عالمه النفسي الكئيب وقلبه الكسير الدامي بالسعادة والهناء مع دوام نعمة الحرية والأمن جميعاً ، حين حرم منها هو ، وهو دعاء صادق نابع من ملك ترفع فوق الدنايا ، وسعدت بهم رعاياه ومن صاحبه من الناس ، وقد كان هؤلاء جزء منهم ، وجاء صدقه هنا واضحاً من خلال بعض الأساليب التي استخدمها بإتقان مثل : إشارته إلى نكبته بكنايات غاية في الدقة والإتقان تشير إلى صدق شاعريته وقوتها حين قال " دعوة لمبتلي بما منه قد عافاكم الصمد الفرد " ، وقوله : " عليَّ قيود لم يحن فكها بعد " ، إنه في قيده وهم مفرج عنهم ، أرأيت كيف لم يحسد ولم يحزن لخروجهم فيؤذيهم ؟ وكيف يتفاءل وسط هذه المحنة بأنها إلى زوال ؟ إنها عبارة مليئة بالصدق ابتعد بها في روعة عما يمكن أن يعكر جو الفرحة لرفاق الأمس ، الذين نعموا بالإفراج، وهي بشارة حافظ المعتمد لهم عليها ، وفي الختام يكشف في وحدته عن عميق إيمانه بالرضا والحمد بما قدر الله ، فيستخدم التقديم والتأخير الذي يسعفه في هذا

(٧٠) راجع في ذلك : قلائد العقبان ــ الفتح بن خاقان ، ص ٢٨ .

الوقت وذلك الموقف الصعب قائلاً " ولله في رمي وأمركم الحمد " .

وقد يظن البعض أن شعر المعتمد كواحد من الملوك ـــ شعر ترف لا مكان له وسط هموم الحكم وتصريف الرعية ، ولكنا رأينا كيف أن شعره هو الذي بقي له في محنته ؟ فلم يجد حين تلفت حوله إلا الشعر سنداً ومسلياً ، ورفيقاً مخلصاً ، خفف عنه نكبته ومعاناته ، ورسم صورة واضحة صادقة لمنحنياتها المعتمة منذ رحلته عن عاصمته إشبيلية حتى مقبرة سجنه بأغمات ، ولا يزال شعره يرثيه فوق قبره بدلاً منه .

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي
حقاً ظفرت بأشلاء ابن عبـــــــاد ؟

بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت
بالخصب إن أجدبوا بالري للصـــادي

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا
بالموت أحمر بالضرغامة العـــــادي

بالدهر في نقم بالبحر في نعـــــــم
بالبدر في ظلم بالصدر في النـــــادي

نعم هو الحق وافاني به قـــــــــدر
من السماء فوافاني ليعـــــــــاد [٧١]

أنه يخاطب القبر الذي سيدفن فيه ، ويعرفه بنفسه وبمنزلة من سينزل فيه وبمناقبه الكثيرة ـــ إن كان لا يعرف ، وكأن المعتمد توقع ما حدث بالفعل : فقد نودي عند وفاته للصلاة عليه يوم جنازته " الصلاة على الغريب " [٧٢] ، وهكذا صدق حدس المعتمد فأطال التكرار في التعريف بتلك المناقب بادئاً بوصف نفسه بالغريب ، وأوصى أن تكتب على قبره هذه الأبيات المذكورة " قبر

([٧١]) راجع : المعتمد في ديوانه ص ٩٦ .

([٧٢]) راجع : نفح الطيب للمقري ـــ ج ٤ ص ٢٥٩ .

الغريب ... إلى آخرها .

وفي هذه الأبيات يكرر المعتمد حرف الباء كثيراً ليرسم لنا لوحة الصدق والعظمة التي سيحظى بها القبر الذي سيدفن فيه المعتمد " الملك والشاعر الغريب " ويوضح مدى ظفره بنزيل هذا الشاعر والملك ، وقد صاحب هذا التكرار معظم تجاربه وصدقه الفني ، وشكل أسلوباً بيِّن الوضوح أعان الشاعر كثيراً في تصوير مشاعره .

أما اللغة التي استخدمها المعتمد فقد شكلت لدينا إحساساً بأنه مطبوع وشعره صاف ، عذب ، وقريحته الشعرية رحبة ، أصيلة ، وإن ندت منه أو من ناسخي ديوانه بعض الهفوات ، فهذا لا يقلل من مكانته الشعرية ، أو امتلاكه لزمام اللغة وتمكنه منها ، وكذلك قوة ملكته ونضوجها مما جعله ينظم مثل هذا الشعر الجيد ، فلغة المعتمد ذات رواء وصفاء ، مكن لها أداء عالي العطاء ، أسعفه في نقل تجربته وعالمه النفسي وكشف نضج فنه ورحابة ملكته الوافرة السخاء .

" خاتمـــــة "

وبعد فقد سيطر حديث المعتمد إلى نفسه وإلى أعماقه الداخلية على معظم شعره ــ كما رأينا في هذه العجالة بالموضع الأول فقد رأيناه يواري نكبته بعيداً عن الشامتين وأعداء الأمس ، رأيناه كذلك صابراً متجلداً وقد وقفنا على بعض الأسباب التي جعلت المعتمد صلباً قوياً ومنها : إيمانه القوي بالله ــ تعالى ــ ويقينه بتداول الأيام ، وأن الملك لا يدوم كل ذلك وغيره ، سلاه وجلا عنه وأغناه عن الاسترسال ، وقلل تجاربه مع الآخرين وجعل شعره يمتاز بهذا الصدق ، وهذا الأثر الكبير الذي تركه في نفوس المتلقين ، وأيضاً كان لحديثه مع نفسه سيطرة قوية على معظم شعره وتجاربه التي قالها في التعبير عن عزة نفسه .

ظهر لنا في هذه العجالة عن الصدق الفني وملامحه في شعر ابن عباد بعد النكبة أن توظيف طرق التعبير في نصوص المعتمد فيض إبداعي تلقائي ، يجلي لنا صدقه واستعلاءه على المحنة ، وقد نجح في توظيف أدواته الإبداعية لنقل عالمه النفسي إلى المتلقي ، بطرق معاني مبتكرة ، وجاءت أساليبه متنوعة إلى حد كبير ، وليس الإجادة كما رأى بعضهم حكراً على القدماء " وليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا بحدثان العهد يهتضم المصيب لكن يعطي كل ما يستحق ... " [٧٣] .

علت منزلة المعتمد بن عباد الشعرية ، وجعله البعض في مقدمة صفوف الشعراء المجيدين ، فمثلاً : يرى ابن حمديس أن المعتمد " جم الأدب رائقه ، عالي النظم فائقه.." [٧٤]، وشعره في الذروة العليا.. " [٧٥].

فبناء القصيدة عند المعتمد بناء متماسك إلى حدّ كبير، وكان لصدقها وكثرة السرد وأسلوب القص فضل كبير في هذا التماسك ، كما كان لوحدة الموضوع ، ووحدة الجو النفسي أثرها في توفير وحدة فنية قاربت ما اصطلح عليه النقاد في العصر الحديث " بالوحدة العضوية " واللافت للنظر في شعر المعتمد هنا أن تجاربه واضحة الأداء رائقة التعبير، غنية بالإطراب والتداعيات الآسرة التي تستولي على المتلقي وتجذبه إلى عالم صاحبها جنباً إلى جنب ، وهذا عين الصدق الفني

---

(٧٣) راجع الكامل للمبرد ج ١ ص ١٨ ، بيروت ، سنة ١٩٨٥ م .

(٧٤) نفح الطيب ــ المقري ، ج ٤ ص ٢٤٦ .

(٧٥) الذهبي في العبر ج ٣ ص ٢٤٦ .

وإن كان مخالفاً للواقع .

أما الصور البيانية ، فكانت تتوارى حين يكثر السرد وأسلوب القص، وهذا كثير عنده ، ومع تواريها ، فإن ثراء النص وروعته تشكل بديلاً عظيماً يكاد ينسينا هذا الخيال البياني من مثل قوله :

إن يسلب القوم العدا ∴ ملكي وتسلمني الجموع

وقد مرت بعض أبيات هذه القصيدة ، ووقفنا على بعض جوانبها الفنية ، وما فيها من جمال ، وقد كثر هذا اللون الذي أغنى فيه السرد والقص عن الخيال إلى حد كبير ، وجاءت روعة شعره في هذا النوع مغلفة بالصدق ، فتعاطف معه المتلقي ومع الكارثة التي حلت به ، فآزره الجميع لأنه كان معذوراً به .. وكذلك في رثاء ولديه يسلك هذا النهج العالي الطراز ، كقوله :

هوى بكما المقدار عني ولم أمت ∴ وأدعى وفياً قد نكصت إلى العذر

توليتما والسن بعد صغيـــــرة ∴ ولم تلبث الأيام أن صفرت قدري

وقد مرت أيضاً بعض أبيات هذه القصيدة ، ولعل هذا اللون هو ما عناه عبد القاهر حين قال : " إن في الكلام مجازاً على غير هذا السبيل ، وهو أن يكون التجوز في الحكم يجري على الكلمة فقط ، وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ، ويكون معناها مقصوراً في نفسه ، ومراداً من غير تورية ولا تعريض .. " [٧٦] ثم يعلق عبد القاهر على هذا قائلاً : " وهذا الضرب من المجاز على جدته كثر من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المغلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان .. " [٢] .

وقد برزت ظاهرة التكرار ، وكانت سائدة على كل الظواهر الأخرى في شعر المعتمد الذي مر بنا ، ثم تليها ظاهرة موسيقية هي التجنيس ثم الطباق ، وتأتي هذه الظواهر وغيرها عفوية مؤدية الغرض منها ، ولا تشكل جزراً في النتاج الشعري ، بل تنداح في التجربة ، ولا نكاد نشعر بها ، وهي تؤازر بقية عناصر الأسلوب في نقل خواطر الشاعر وعالمه النفسي ، وظهور صدقه الفني ،

([٧٦])([٢]) راجع : دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق الشيخ محمود شاكر ، ص ٢٩٣ ، وما بعدها .

وفي شعره بعد النكبة بشكل عام تذخر عاطفة هذا الشاعر الملك بالحرارة والحماسة فتتعاطف معها نفس المتلقي ، وتعانقها وتميل معها حيثما مالت ، إن المعتمد شفى نفوسنا بتصويره البارع لما حدث له من زوال لسلطانه ، ونهاية ملكة ودخوله السجن ، ولكن بقدر الله وبحكمته وقضائه ، فلا راد له " وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ " [٧٧] ، لكن ما يعزيه أنه بذل ما في وسعه وطاقته للخروج من هذه الهزيمة ، لكن أمر الله نافذ ـــ أرأيت صدقه وفنية تعبيره عن هذا الصدق ؟ !!

(٧٧) سورة الرعد من الآية رقم (١١) .

من أهم مراجع ومصادر البحث

ـ القرآن الكريم " عز من أنزله " .

(١) الأدب الأندلسي . من الفتح إلى سقوط الخلافة د . أحمد هيكل ط / دار المعارف بمصر ـ رابعة ، سنة ١٩٧٩ م .

(٢) الأدب العربي في بلاد المغرب والأندلس ، عمر فروخ .

(٣) أسس النقد الأدبي د . أحمد أحمد بدوي ط / دار نهضة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٩٤ م .

(٤) أصول النقد الأدبي . تأليف أحمد الشايب ، الأستاذ بجامعة القاهرة سابقاً ط / مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٣ م .

(٥) أعمال الأعلام ـ لسان الدين بن الخطيب . تح . ليفي بروفنسال ، بيروت سنة ١٩٥٦ م ، وط / الرباط سنة ١٩٣٤ م .

(٦) البيان المغرب في أخبار المغرب ـ لابن عذارى ـ محمد عبد الله المراكشي ـ نشره دوزي سنة ١٩٤٨ م ، سنة ١٩٥١ م .
والجزء الأول والثاني ط / المناهل بيروت سنة ١٩٥٠ م .

(٧) تاريخ النقد الأدبي عند العرب د . إحسان عباس ط / دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٧٨ م .

(٨) الحلة السيراء ـ لابن الأنبار القضاعي ـ تحقيق إبراهيم الإبياري وآخرين سنة ١٩٥٤ م ، وطبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ ، ونشر دوزي سنة ١٩٤٨ م ، سنة ١٩٥١ ، وتحقيق حسين مؤنس ـ القاهرة ، سنة ١٩٦٣ م ، سنة ١٩٦٤ م .

(٩) خريدة القصر وجريدة أهل العصر ـ لعماد الدين الأصفهاني ، ط / الدار التونسية .

(١٠) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، د . الطاهر أحمد مكي، ط / دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣ م .

(١١) ديوان أبي تمام (شرح ديوان أبي تمام) ضبطه وشرحه الأديب شاهين عطية ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٩٢ م .

(١٢) ديوان المعتمد بن عباد . نسخة مصورة عن الهيئة المصرية سنة ١٩٩٧م.

(١٣) دلائل الإعجاز ــ عبد القاهر الجرجاني ٠ تح ٠ الشيخ محمود شاكر، وتح د٠ عبد المنعم خفاجي ، ومحيي الدين عبد الحميد وغيرهم ٠

(١٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٠ ابن بسام ٠ تح إحسان عباس ٠ القسم الثاني، المجلد الأول ط٠ الدار العربية ــ ليبيا سنة ١٩٧٨م٠

(١٥) رايات المبرزين ــ لابن سعيد ــ تحقيق د ٠ النعمان عبد المتعال ، ط / القاهرة سنة ١٩٧٣ م ٠

(١٦) عيار الشعر ــ لابن طبا طبا العلوي ٠ تح عباس عبد الساتر ط / دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٩٨٢ م ، وتح د ٠ عبد العزيز المانع ط / دار العلوم ــ السعودية ٠

(١٧) عصر الدول والإمارات ، د ٠ شوقي ضيف (الأندلس) ط / دار المعارف بمصر ، سنة

(١٨) قراءة في تاريخ الأدب الأندلسي (محاضرات ألقيت على طلاب الفرقة الثالثة بكلية اللغة العربية بأسيوط ، سنة ٢٠٠٩ م ٠

(١٩) قلائد العقيان ــ لابن خاقان ٠ تح : إحسان عباس ، وط / بولاق ،بدون تاريخ ٠

(٢٠) الكامل في التاريخ ٠ لابن الأثير ــ علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير ط / دار صادر بيروت ، سنة ١٩٧٩ م ٠

(٢١) المعتمد بن عباد في ديوانه ــ جمع وتحقيق د ٠ أحمد أحمد بدوي وآخرين ط ٠ ثانية دار الكتب العربية سنة ١٩٩٧ م ٠

(٢٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب٠محي الدين أبي محمد عبد الواحد المراكش ــ تح : سعيد العريان ، القاهرة سنة ١٩٤٩ م ، وطبعة ليدن سنة ١٨٨١ م ترجمة فنيان ــ الجزائر سنة ١٨٩٣ م ٠

(٢٣) المغرب في حلي المغرب لابن سعيد ــ علي بن موسى المغربي ــ ط/ دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٦٤ م ، وتح د ٠ شوقي ضيف سنة ١٩٥٣ م ٠

(٢٤) المطرب من أشعار أهل المغرب لأبي الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي ٠ تح : إبراهيم الأبياري وآخرين سنة ١٩٥٤ م ٠

(٢٥) الموازنة ، للآمدي (أبو اليسر الحسن الآمدي تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط / القاهرة سنة ١٩٥٩ م) .

(٢٦) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ــ محمد عبد الله عنان ط / مؤسسة الخانجي بالقاهرة .

(٢٧) نفح الطيب من غض الأندلس الرطيب ــ لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني تح : إحسان عباس سنة ١٩٦٨ م ، ومحيي الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٩ م .

(٢٨) النقد الأدبي أصوله ومناهجه ــ سيد قطب ، ط / دار الفكر العربي ، بيروت ــ لبنان بدون تاريخ .

(٢٩) ــ النقد الأدبي الحديث ــ محمد غنيمي هلال ــ ط / دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٢ .

(٣٠) نهاية الأرب . لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ــ تحقيق د . أحمد كمال زكي ود. مصطفى زياد ، ط / الهيئة العامة للكتاب .

(٣١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد ابن محمد بن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، ط / دار الثقافة سنة ١٩٧٧ م .

(٣٢) فوات الوفيات تأليف محمد بن شاكر الكتبي . تح : إحسان عباس ط/ دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٧٣ م .